

# الخطأ القاتل

عاد المستر « كار » إلى لندن في نهاية شهر يوليو الأمر الذي كان يتنافى مع سياسة التقشف البريطاني ، وكان التغلب على مشكلات ونقصان الأساسيات الخاصة بتأسيس المسكن أمراً صعباً ، إلا أنه في النهاية استأجر بيتاً في أحد الشوارع الخلفية في « دي فيري جاردنز » بمنطقة « لينسينجتون » .

وكانت الحياة في بريطانيا ذات مساوئ أخرى ليس آخرها الغلاء الفاحش وضعف الرواتب برغم التعويضات التي كانت تقدمها الحكومة .

وفي أعقاب الكوارث الأولى المبكرة ، تمتع جهاز الاستخبارات السرية البريطانية بفترة عمل جيدة وإنجازات ملموسة أثناء الحرب وذلك بفضل التقنيات التي كان يستخدمها وهكذا لم يعد مستقبل الوكالة الاستخبارية مهدداً بالفناء كما كان في الماضي .

واستطاع « مينزيس » أن يضمن لضباطه العفو من مهانة المرتبات الوضيعة والمرتبة الدنيا في وظيفتهم كضباط مراقبة جوازات سفر ، اللهم إلا إذا كان ذلك أمراً متفقاً عليه للتمويه وكستار على عمليات استخبارية .

ولقد تم تحويل الهواة في العمل الجاسوسى إلى محترفين في نظر الجهاز المدنى الاستخباري . وكان « مينزيس » محافظاً وأوشك على التقاعد الأمر الذى لم يمكنه من إعادة تنظيم جهازه المخبراتي إلا أنه مع ذلك استطاع إنشاء قسم خاص بجمع المعلومات الاستخبارية من شطرين هما : المهمات والإنتاج .

وكان هناك تسعة أقسام أخرى كل منها مسئولة عن موضوع خصوصى - السياسة ، الاقتصاد ، العلوم ، والخدمات العسكرية - وهى التى كانت تقرر نوعية المعلومات المطلوبة من الأقسام الجغرافية الخمسة المسئولة عن عمليات المخبرات حول العالم .

وعلى الرغم من أنه كانت هناك الفرصة لإنتاج الدماء الجديدة وضخها في أجهزة

المخابرات البريطانية السرية ، إلا أن مينزيس كان ينظر إلى زملائه القدامى والموثوق فيهم على أنهم سوف يصبحون المتحكمين والمديرين لأقسام الإنتاج .

وكان الثواب الذى ناله نظير خدماته فى هلسنكى ونجاحاته إبان زمن الحرب فى ستوكهولم هو وسام « سى - إم - جى » ( رفيق سانت ميشيل وسانت جورج ) والترقية إلى مرتبة المشرف والمتحكم فى منطقة الشمال التابعة للمخابرات البريطانية .

وشغل مكتبه الطابق السادس فى « برودواى » . وكان يعكس هذا القسم المسئوليات التى تعلقها وزارة الخارجية البريطانية على منطقة الشمال التى اشتملت على : النرويج والدانمارك ، والسويد وفنلندا والاتحاد السوفيتى .

وهكذا بدأ تمكنه من هذا العمل الجديد إذ كان قد أنفق خمسة وعشرين عاماً من الخبرة العملية فى هذه البلدان ، وكان طبيعياً أن لا يوجد منافس أو منازع له فى نطاق منصبه الجديد داخل المخابرات السرية البريطانية .

ووقعت تحت رعايته محطات المخابرات البريطانية فى كل من العواصم الخمسة ، التى كانت مهمتها الأساسية - بعد أن وضعت الحرب أوزارها - هى جمع المعلومات مرة ثانية ، ولكن عن روسيا فى المقام الأول هذه المرة .

وكان من حقه الادعاء بأن عمله تقدم تقدماً جوهرياً ، ولدى عودته من « ارشانجيل » جعل يعلم نفسه الاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة من أجل أن يصبح موظفاً مكتبياً . وبعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً ، أصبح قناة هامة من الاستخبارات لرئيس الوزراء ووزارة الخارجية رغم عدم تلقيه تعليماً إضافياً أو حصوله على مؤهلات مهنية ، وذلك من خلال تقديمه للمعلومات الهامة عن الشؤون الداخلية لروسيا أكثر أعداء بريطانيا صرامة .

وبدا الأمر وكأنه فرصة طيبة للمستمر « كار » إذ أنه صار من خلال السلسلة الجديدة للقيادة ، كان يتعين عليه أن يكتب التقارير أولاً بأول للمستمر « كينث كوهين » مدير الإنتاج الذى كانت اهتماماته السائدة هى فرنسا والبلاد الواطئة ( هولندا ) ، وكان من عادته طلب تقارير غير محددة عن الأنشطة الدائرة فى منطقة الشمال .

كان من بين عملاء وزبائن المستمر « كار » هو « فيلبى » وقسمه الجديد المسمى باسم « ار - ٥ » للاستخبارات المضادة ، التى حلت محل القسم التاسع . وكان « فيلبى » لا يزال مسئولاً عن الإشراف على جمع المعلومات على النطاق الدولى عن كافة

الأشياء والأشخاص والسياسات (أى المادة) المعادية والمناهضة للسوفيت والشيوعية .

وظل « كار » مسئولاً عن تأمين سرية عملياته ، طالما أن « مينزيس » لم يكون جماعة الاستخبارات المضادة الموازية من أجل مراقبة أنشطة المخابرات البريطانية السرية الخاصة وعملائها .

تناقضت خبرات المستر « كار » على زمن الحرب في الجو الهادى للسويد المحايدة تناقضاً حاداً مع ذلك الجو الذى عمل فيه رفقاؤه الذى كان عبارة عن جو حرب ونيران في بريطانيا ، وجزر البلقان ، وشمال أفريقيا وفرنسا وألمانيا .

وعلى مدار عمله المهنى ، وحتى ترقيته في ١٩٤٥ ، انعزل المستر « كار » عن الضغوط الداخلية الممارسة في « برودواى » ، وأصبح مدركاً إدراكاً غير كامل بطبيعة الكوارث التى وقعت على أجهزة المخابرات البريطانية أثناء الحرب . ولم يكن يعرف إلا القليل مما تكبدته أجهزة الاستخبارات البريطانية وأقسامها الداخلية المختلفة .

وكانت التجاوزات والأخطاء المنكرة التى وقعت في سكندنافيا قد أكدت في رأيه تلك السمعة السيئة التى لحقت بمنظمة « إس - أو - إى » التابعة للمخابرات البريطانية ، وكيف أنها لاتحظى بالاحترام ، وبخاصة عملياتها في هولندا .

وفي الفترة بين ١٩٤٠ - ١٩٤٤ ، أثناء تدفق الرسائل اللاسلكية بالراديو عبر القنال الانجلى ، كانت ترسل تلك المعلومات إحدى شبكات المقاومة ، وتم إبرار ١٤٠ عميلاً تابعاً لقسم « إس - أو - إى » بالبراشوط لمقاتلة القوات السرية الهولندية . وفي الواقع كان « إس - أو - إى » ضحية لك « نوردبول » وهى عملية خداع ضخمة صعدها الـ « ابويهر » .

وكانت المفاجأة أن جميع عملاء منظمة « إس - أو - إى » التابعين للمخابرات البريطانية استقبلهم لدى نزولهم « الجستابو » الألمانى أو البوليس السرى للرايخ الثالث النازى ، وبعد أن ورد إلى لندن رسائل تقول بوصولهم سالمين ، سمعوا بعد ذلك أن جميعهم قد أعدموا .

وفي عام ١٩٢٥ ، كان « كار » قد جرب كخبرة أخبث نماذج الخداع تلك التى مارسها الـ « ترست » وكان ليس بحاجة إلى التحذيرات بشأن مهالك ضعف الأمن

واحتياجات التجزئة المطلقة لحماية العملاء الأفراد .

وكانت علاقة « كار » مع « مينيزيس » علاقة حميمة ، ليست على المستوى الاجتماعي بل على المستوى المهني . ذلك أن الظروف الاجتماعية التي تربي فيها كل منهما كانت مختلفة اختلافاً شديداً . ومع ذلك ، كان كلاهما يشترك في بغضه واشمئزازه من الشيوعية والشكوك في البلاشفة وعدم الثقة في وجهة النظر الشعبية بأن روسيا الستالينية سوف تصبح حليفاً دائماً في زمن السلم .

وجلب « مينيزيس » أحد الشخصيات من الخارج وهو العميد طيار جيمسى « جاك ايستون » ، وكان قد حظى بالتقريظ والإشادة أثناء الحرب بصفته مساعداً لمدير سلاح الجو الملكي البريطاني لشئون المخابرات ، بسبب تقديمه التسهيلات لأجهزة المخابرات السرية البريطانية ومنظمة « إس - أو - إي » ، ولذلك فقد تم تعيينه نائباً للمستر « سى »

وعاد المستر « ايستون » الذى يتصف بالهدوء والحنكة والخبرة والممارسة إلا أنه لدى وصوله تعرض لموقف لا يحسد عليه إذ تجنبه مجموعة من رجال المخابرات القدماء المحنكين ذوى الباع الطويل فى شئون روسيا ، واحتقروا وازدروا فكرة أن يتولى رئاستهم رجل بدون « تاريخ كبير » فى العمل الاستخبارى ، لا يتصف بالحساسية لعالم الجاسوسية والعمل الجاسوسى والجواسيس والعملاء . وقالوا : كيف يمكن له أن يمارس ويزاول السلطة عليهم وهو يفتقد إلى هذه المؤهلات الضرورية ؟ .

وبعد قضائه أياماً قليلة فى «برودواى» علق « ايستون » على مايلقاه فى «برودواى» لزوجته قائلاً : « إنه مناخ شديد الحساسية وسريع الغضب . وأثار حفيظة نقاده الاستئناف المتوقع للعمل ضد البلاشفة ، وكان من المتوقع أن يكتبوا بذلك إلى المستر « ايسون » ، وسرعان ما يتقن النائب الجديد من أنهم يتحاشون ويتجنبون مكتبه المجاور لمكتب « مينيزيس » فى الدور الرابع .

كانت دائرة روسيا القديمة تشمل « ويلفريد » و« بيفى » دنورديل « الذى أشرف باعتباره ضابطاً فى المخابرات البريطانية السرية فى باريس قبل الحرب ، على مجموعة كبرى من الروس البيض تعمل ضد السوفيت .

وفى عام ١٩٤٥ ، استأنف « دندرديل » صلاته مع « طاقم كبير » قوامه ثلاثون مهاجراً روسياً فى لندن لاعتراض الاتصالات السلكية واللاسلكية البريطانية . وقدم

« بيغى » الذى سكن فى منزل منفصل ، قدم عملياته على أنها « عملية إذلال » للبلاشفة وأصر على المثل المباشر بين يدي المستر « سى » ، وتحاشى « ايستون » من حماية عملياته .

ولم يتحقق أحد فى ١٩٢٩ من أن مجموعة باريس تم اختراقها اختراقاً كاملاً كما أنه - بنفس القدر - لم يتم السماح لأحد بأن يعرف عام ١٩٤٥ أن فريقه أصبح تحت أضرار السوفيت وأنهم فقدوا كل شىء . ولم يتسنّ لهم معرفة كل هذه الأسرار إلا فى أثناء الخمسينات .

كان « هارولد جيسون » رجلاً آخر من أولئك الذين يجيدون الحنكة والدربة التعامل مع الأشياء واتصف بأنه داهية . ففى الفترة الواقعة قبيل انتهاء الحرب ، زعم « جيبسون » تحقيقه لنجاحات باهرة فى براغ وبخارست . أما الآن فقد تحقق المستر « ايستون » كيف أن الضابط المنتظر ساعات طويلة خارج مكتب « سى » للاجتماع معه ، ولم يناقش معه العمليات بصفته الرئيس المباشر له .

فكانت كلما اضطرت الظروف المستر « جيبسون » لشرح أنشطته إلى « ايستون » شعر الرجل القادم حديثاً بعدم الرضى ، ولم يكن هناك ثمة تفاهم بينهما ، فكان الأمر يشبه الماضى للقطن على غير طائل .

وفى تلك الآونة صارت القوات الروسية لأول مرة فى التاريخ متمركزة فى قلب أوروبا وأصبحت جميع أجهزة المخابرات الغربية تنشد وتسعى إلى اختراق الضباب : ضباب الشكوك وعدم التيقن بشأن النوايا السوفيتية .

وبالنسبة إلى المخابرات البريطانية والأمريكية ، أصبح تقسيم ألمانيا إلى منطقتين يقدم ميزة وفرصة فريدة هى استطاعة مراقبة الجيش الأحمر والمخابرات السوفيتية الـ « كى - جى - بى » وهى تعمل . ذلك أنهم يستطيعون بعيداً عن روسيا إخفاء أنفسهم عن الأعين ، أما فى داخل ألمانيا ، فتستطيع أجهزة المخابرات الغربية مراقبة هيئات العاملين وتقنياتهم وأهدافهم .

وأصبح لأول مرة ، لم تحتج أجهزة المخابرات البريطانية السرية أية رجال للعمل كما لم تعد تعانى من نقص الكوادر ( كانت المخابرات السرية للدولة البريطانية تسمى أصلاً « إم - أى - ١ » ثم أعيد تسميتها « إم - أى - ٦ » عام ١٩٢٢ . أما الاسم الذى أطلق عليها قبل هذه الفترة من التاريخ فقد كان مجهولاً ) .

وفي ذلك الموقع كانت المخابرات البريطانية تستطيع استغلال التوسع الضخم للعتاد والقوة العاملة في زمن الحرب . وكان مجرد توقيع واحد كافياً لاكتساب أو مصادرة أى شىء مطلوب من الألمان .

إلا أن « مينزيس » حث على الحرص والحذر بين هيئات العاملين . وتوقع البعض أن تستمر الحكومة التي يتزعمها حزب العمال البريطانى في علاقاتها الطيبة على زمن الحرب مع موسكو وإدانة أى ارتباك يسببه جهاز الاستخبارات البريطانية السرية . وفي نفس الوقت ، يتم الاتصال بالقوميات المناهضة للسوفيت كما كان الزج بالعملاء في الدول والبلدان التابعة .

وقال « مينزيس » : إن هذا لم يستبعد إعادة تجديد المساندة للشعب الأكرانى وشعب جورجيا ، واتفق مدة على هذا الرأى المستر « كار » ، وكذلك أهالى دويلات البحر البلطى الذين بوسعهم التطوع بكل توفيق وشغف من أجل أى اشتباك من شأنه تحرير بلادهم .

وأوصى « كار » بإرسال مشغل لاسلكى من السويد إلى لاتفيا ، الذين كانوا بكل المقاييس لايزالون مشتبكين في الحرب الضروس مع الروس . ووافق مينزيس ولكن للمرة الثانية حث على توخى الحذر والحرص . وهكذا فقد تقرر أن يتم إرسال وتوجيه جميع المساعدات والعون بكل حزم عبر الوسطاء .

كانت ثمة ضرورة توجب وجود صلة أو ارتباط مع رئيس « ار - ٥ » وحدث أن حكم « كيم فيلبى » على مشروع « كار » بأنه بمثابة إعادة تجديد للعداوات .

وعهد « كار » بالمسئولية عن إدارة والاشراف على العمليات الجديدة إلى « ساندى ماكيبين » الذى ألحق للعمل في مركز الاتصالات الخاص في شارع « رجدير » بالقرب من بيكاديللى ، وعلى الرغم من عدم وجود ألفة بين الرجلين ، إلا أن « كار » اعتقد بأن « ماكيبين » امتلك المؤهلات الملائمة .

إذ كان يتحدث عدة لغات ويتمتع بخبرة طويلة في المنطقة ، كما كان يستمتع بالإخلاص والولاء والاحتمال فضلاً عن الثقة ، وهياً نفسه للبقاء في إطار الخدمة ، في حين كان عدد كبير من الأشخاص الآخرين بصدد الرحيل ، سعياً وراء إغراءات الفرص المربحة في المدينة .

وعلى صعيد دول البحر البلطى ، أرسل سفراء الدويلات الثلاث برسائل دورية إلى وزارة الخارجية الأمريكية ووزارة الخارجية البريطانية يحتجون بأن الحكومات الجديدة اعترفت بحق بلادهم في البقاء .

وعلى الرغم من أنهم في واشنطن كانوا يعاملون هؤلاء بكل محبة سواء على الصعيد الرسمى أو غير الرسمى . وأدانت وزارة الخارجية البريطانية اتصالاتهم ووصفتها بأنها « مناشدات محزنة ومثيرة للشفقة » .

وكتب « باسيل سميلى » الممثل بالحكومة البريطانية بعد أن قرأ وصفاً للموقف البائس في دول البحر البلطى من السفير اللاتفى « تشارلز زارينو » يقول : « ليس هناك بوسعنا فعله لمساعدتهم ، كما أنه ليس هناك أية مقولات يمكن استمدادها من التاريخ الخاص بـ لاتفيا » أو استونيا أو ليتوانيا من شأنها أن تؤثر على المستقبل .

وساد نفس الاتجاه بعد السماح للمستمر « شارمان » السكرتير الأول بالسفارة البريطانية في موسكو ، له في أكتوبر ١٩٤٥ بالسفر إلى ريجا لأول مرة وتأكيد ادعاءات « زارينز » بالرعب والترحيلات الجماعية إلى سيبيريا .

وقال « شارمان » في تقاريره أنه ليست هناك حركات مقاومة ضد السوفيت وربما قرأ « كار » و « ماكيبين » تقرير شارمان إلا أنهما رفضاً ملاحظاته على نحو صائب واعتبراها وجهة نظر ضابط صغير الرتبة وعديم الخبرة كان يسافر تحت وطأة الإشراف المطبق والمحكم .

وفي ذلك الحين كان الـ « كى - جى - بى » يعانى من خسائر خطيرة في عملائه الديموية لقمع الفلاحين .

وتحقق السفراء الثلاثة ( سفراء دول البحر البلطى ) من أن توازن القوى مال لصالح الأطلنطى وأن تحرير بلادهم يعتمد على واشنطن حيث أن كثيراً من شعوب بلاد أوروبا الشرقية تعيش في أمريكا .

وفي السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى ، لم يهاجر سوى أقل من ١٠٠,٠٠٠ روسى وأوروبى شرقى سنوياً إلى الولايات المتحدة ، وفي بعض السنوات ، وصل الإجمالى إلى حوالى ٣٠٠,٠٠٠ ، وبعد ذلك بثلاثين عاماً كانت الأغلبية لاتزال تعيش ونقلت إلى الجيل الجديد شعورها المتأجج بالوطنية والقومية وشكوكها في الشيوعية .

وضغطت جماهير المهاجرين عبر الحرب العالمية الثانية على روزفيلت نيابة عن أبناء بلادهم ، وأرسلوا وابلأ من القنابل ( في شكل التماسات ) إلى الكونجرس والبيت الأبيض يطالبون فيها بتنفيذ ميثاق الأطلنطى .

وفي فبراير ١٩٤٥ ، كتبت رابطة تحرير ليتوانيا إلى روزفيلت تشكو من أنه ليس هناك أى ذكر في « بالطا » عن مسألة وقضية دويلات البحر البلطى .

وتدفقت المناشدات في هيئة فيضان في الأسابيع الواقعة قبل انعقاد مؤتمر « بوتسدام » تم تقديم معظمها شخصياً من جانب الوفود الآتية إلى وزارة الخارجية الأمريكية ، وكلها تحمل صفة وعلامة اللوبى المنظم من أجل الضغط على الإدارة الأمريكية .

وكلها ذكرت المتناقضات الصارخة الواردة في « يالطا » وميثاق الأطلنطى . وبكل تأكيد ، حث الملتسمون على تحقيق أمانى دول البحر البلطى وكيف أن لها نفس حقوق الاستقلال والحكم الذاتى شأنها في ذلك شأن سائر الأمم .

وكان رد فعل المسؤولين الحكوميين هو التصرف بإنكار أنفسهم والابتعاد بأنفسهم عن هذه القضية ، إذ لم يشأ أحد أن يكشف تعهدات روزفيلت إلى ستالين حينما تخلى عن الاحتلال السوفيتى لكل من دول البحر البلطى وبولندا ، وقال للزعيم السوفيتى : « لا أنوى خوض الحرب من أجل هذه القضية » .

أما ضغطهم على خليفة روزفيلت فقد أثبت جدواه . ففي خطبة ٢٧ أكتوبر ١٩٤٥ في نيويورك « سينترال بارك » إعادة ترومان تأكيدات على مساندة للدول المحتلة والتزامه بميثاق الأطلنطى . وهو أمر جعل الجماهير المستمعة له تشعر بالامتنان والرضا .

إذ أن أمريكا الدولة الوحيدة التى تمتلك القنبلة الذرية كانت من القوة الكافية بحيث انها تستطيع استخراج وأخذ التنازلات اللازمة من الاتحاد السوفيتى . وحتى إذا كان ترومان غر مستعد لكسر الصداقة مع ستالين ، وهو مادعه روزفيلت ، إلا أن زعماء دول البحر البلطى في أمريكا اعتقدوا أن الحكومة البريطانية سوف تساعدهم وتعين قضيتهم بكل تأكيد ، حيث أنهم سمعوا من السفراء بصورة غير رسمية أن جهاز المخابرات السرية البريطانية لم يتخل عن اهتماماته ومصالحه التقليدية .

وأصدر « كار » تعليماته إلى مرؤوسيه بإقامة تواجد عبر بلدان وجمهريات الاتحاد السوفيتي . وكانت الاستخبارات البريطانية تحتاج إلى الزعماء المهاجرين من كل من المناطق التي تستطيع تقديم تنظيمات قومية لها مصداقية لجمع المعلومات وتجنيد العملاء . وأمر المستر « كار » ضباطه باستئناف وإقامة العلاقات مع أولئك الذين هم أصدقاء للمخابرات البريطانية قبل أو أثناء الحرب ، وعادة بغض النظر عن تعاونهم إبان الحرب مع ألمانيا ، وكان من بين هؤلاء « ستيفان بانديرا » رجل الزعامة القومية الأكرانية الذي عمل معه « كار » أثناء الثلاثينات في فنلندا .

وفي عام ١٩٤٥ ، كان لاجئاً في ألمانيا الغربية . ورجل اخر هو الجنرال « لاديسلاف اندرز » زعيم الجيش البولندي المحل ، الذي دفعته المخابرات البريطانية لإقامة العلاقات مع ضباطه في بولندا التي يحتلها السوفيت . وكانت العمليات في كل من هاتين المنطقتين بمثابة المسؤولية الكاملة الواقعة على « كار » أما إعادة إقامة علاقات الاستخبارات البريطانية مع رجال الجاسوسية في دويلات البحر البلطي ، فقد كانت مسئولية مباشرة للمستر « ماكيبين » .

وفي بواكر يولية ١٩٤٥ ، عاد « ماكيبين » إلى ستوكهولم لمقابلة « ولتر زيلينسكاس » ، وهو أحد الدبلوماسين السابقين . وكان الرجل الليتواني يكافح من أجل البقاء والبقاء . والآن في أعقاب انتهاء الحرب مباشرة ، أعطت الحكومة السويدية - التي كانت تخشى من تعنيفات وتوبيخات موسكو - إخطاراً بمهلة يومين إلى السفارة الليتوانية لإغلاق مقر السفارة وأمرأ آخر بنقل كافة ملفاتها إلى السفارة السوفيتية .

ولما انتهت المهلة ، تعرضت الملفات كلها إما إلى التدمير أو النقل في أحد الزوارق الصغرى إلى إحدى الشقق الصغرى في « أودينجاردين » . على الرغم من أن عمليات المخابرات البريطانية في زمن الحرب في ليتوانيا كانت ناجحة ، إلا أن « ماكيبين » تحدث بتفاؤل عن المستقبل ، وأخبر « زيلينسكاس » بأنه سوف يعطى المعونات المالية مهما كانت ضخامتها والتي يحتاجها من أجل جمع المعلومات المخبرانية لصالح أجهزة المخابرات السرية البريطانية .

ثم عاد آنذاك « الجيرداس فوكيتيتس » العميل المشترك بين المخابرات السرية البريطانية ومكتب الخدمات الاستيراجية ( المخابرات الأمريكية ) ، ليتم إرساله مرة ثانية إلى ليتوانيا عام ١٩٤٣ ، وبعدها عاد إلى السويد ، وقد نجا بحياته من الحجز في داخل معسكرات الاعتقال الألمانية .

وعقد اجتماع على عجل ، قال فيه للمستتر « ماكيبين » : إن زعماء الـ « فليك » وهى اللجنة العليا لتحرير ليتوانيا ، قد نجوا كذلك من السجون الألمانية إذ كانوا مفخرة الاستخبارات البريطانية السرية لانهم ، حسبما قال « فليك » يمثلون كولية وتنظيماً ناضجاً سياسياً وعسكرياً ، وكان لهم صلاتهم مع آلاف المعادين والمناهضين المسلحين للشيوعية والذين كانوا يقاتلون فى الغابات .

فى نفس اللحظة بعينها ، كان ضباط المخابرات الأمريكية أيضاً يبحثون عن زعماء « فليك » .

ولم تكن الحرب قد وضعت أوزارها ، إلا وقد أخذ الليفتنانت « أنتونى فيفيدل » ، وهو أحد ضباط الاستخبارات الصفار الذى يعمل فى مقر الجيش الثالث التابع للجنرال « باتون » فى ميونخ ، أخذ يتدبر ويفكر كيف يقوض من القبضة السوفيتية على أوروبا الشرقية ، وبخاصة ليتوانيا .

كان فيفيدا بلغ من العمر ٢٤ عاماً ، ونشأه والداه ( وهما من ليتوانيا ) على بغض وكراهية الروس . وعلى الرغم من أنه ولد فى « فيلادلفيا » .. على الساحل الشرقى للولايات المتحدة ، إلا أن فيفيدا وعائلته شأنهم شأن الكثيرين الذين وجدوا الحصن والملاذ فى أمريكا من الشمولية والديكتاتورية الروسية لم يتخلوا أبداً عن جذورهم .

وفى عام ١٩٢٠ ، عادوا إلى ليتوانيا وقد أثارهم استقلال دولتهم ، وماكادوا يطأون أرضها إلا وقد أضر بهم الفقر والعوز والأوهام . وبعد ذلك بسنوات ست ، عاودوا هجرتهم إلى أمريكا ليوقدوا من جديد مع مليون آخرين من المهاجرين الليتوانيين شموع التحررية الوحودية لبلادهم من على البعد .

وفى داخل مقر المستر « باتون » بميونخ ، كان ثمة حديث طويل وكثير حول تهديد الشيوعية - وأخذهم العجب والتناقض كيف يكونون أعداء على هذا القدر من الحضارة ومع ذلك هم حلفاء للولايات المتحدة الأمريكية منذ أربعة أعوام كاملة . وكان بعض ضباط وأتباع فيفيدا أكثر قلقاً وانزعاجاً من الجيش الأحمر والشيوعيين ، وليس النازيين والرايخ الثالث الألمانى ، الذين كانت خنادقهم وقوتهم ونفوذهم لاتزال واثقة حول بافاريا .

وقد يقول الكثيرون : إن الظلم الواقع عليهم نبع عام ١٩٤٥ حينما واجه الجيش الثالث الأحمر فى تشيكوسلوفاكيا على ضفاف نهر « إلبى » إذ اتصفت المواجهة هذه

المرّة بأنّها كثيفة وعدوانية ، أغرت الضباط الأمريكيين بأن يغمضوا أعينهم حينما ساعد أتباعهم وحدات « فيرماخت » المحتجزة والضباط الأبقين التابعين لمجموعة « إس إس » على الهرب إلى ناحية الغرب .

ولقد تمخضت مآسى الحرب والعداوات بين الشعوب الأوروبية وتطاحن جيوشها إلى إلحاق الخراب بالبلدان والمدن والمصانع والمزارع وتشريد السكان وترويع الأمن ونشر الخراب والدمار ، وضياع الأمن وافتقار السكنية فضلاً عن تشرّد العمال ، وهيامهم على وجوههم في البلاد طلباً للرزق والعمل وسعيّاً وراء حياة جديدة والبقاء وهرباً من الموت المحدق بهم من كل صوب وناحية .

وكان معظم الأغلبية من هؤلاء ضحايا بلاشك . وكان هناك ضحايا لجماعة « إس إس » هم الذين تم اختطافهم من منازلهم في أوروبا الشرقية للعمل في ألمانيا ومصانعها العامرة والمناجم الساحرة أو من أجل السجن فحسب في واحد من الكثير من السجون الألمانية ومعسكرات الاعتقال ( التركيز ) المنتشرة في أرجاء وربوع بلاد الرايخ الثالث .

وعلى الرغم من أن المجموعة الضخمة كانوا من البولنديين ، إلا أن « فيفيدا » لاحظ أن الكثير من الضحايا الآخرين كانوا ينتمون إلى الشعوب الأوكرانية والقوازقة والأذربيجانيين ، والبييلوروسيين ( أهالي روسيا البيضاء ) أو الأرمن الذين كانت أوطانهم تنتمي إلى روسيا حسب اتفاقيات « يالطا » .

وكان البعض الآخر ضحايا للنازية وبعضهم حارب الألمان ضد السوفيت ، والآخرون كانوا بمثابة لاجئين هجروا أوطانهم وبلادهم في اتجاه الغرب خوفاً من الشيوعية ، وكان من بين هؤلاء الفئة الأخيرة قوميات ورعايا ينتمون بجنسياتهم إلى جمهوريات البحر البلطى الثلاث : لاتفيا ، وليتوانيا ، واستونيا .

وفي الأيام المبكرة من شهر مايو ، شرع فيفيدا في القيادة بالسيارة مئات الأميال حول بافاريا باحثاً عن اللاجئين الليتوانيين والتحدث معهم بلغاتهم الأصلية . لقد أخبروه بالأحوال والفظائع التي ارتكبتها الروس ، وكيف أنهم بسبب خشيتهم من الشيوعية تخلوا عن كل شيء وخشية أن يقوم الأمريكيان بنقلهم قسراً والعودة بهم للعيش تحت إمرة وسيطرة السوفيت كما فعلوا مع الكثير من الأوروبيين الشرقيين .

والأسوأ من ذلك كله ، اعتقادهم بأن الجيش الأحمر سرعان ما يزحف صوب الغرب لاحتلال المزيد من البلاد والبقاع الأوروبية . ولقد أوقدت حكاياتهم نيران

الكرامية والمقت ضد السوفيت . فصار « فيفيدا » يحترق حقداً وبغضاً لهم والذي أزعجه أن كثيراً من رفاقه الضباط الأمريكان كانوا يخاطبون الليتوانين كما لو كانوا - مثل اللاجئيين الروس - قد تعاونوا مع النازيين .

وشرع « فيفيدا » بناءً على مبادرة منه في البحث عن زعماء « فليك » الذين لايزالون على قيد الحياة . وراح يعبر شوارع ومناطق بافاريا بسيارته العسكرية « الجيب » . واقتنع أن بحثه هذا يمثل إضافة إنسانية إلى القضية الليتوانية ، وإضافة إلى المعرفة والمعلومات الأمريكية حول الموقف في روسيا .

ولقى طلبه المكافأة والثواب . إذ وجد بعض زعماء الـ « فليك » وعثر عليهم وكانوا لايزالون محتجزين في سجن « كوبورج » ، فأصدر أوامره بإطلاق سراحهم ، والآخرون الذين فروا مع الألمان في أواخر عام ١٩٤٤ ، استقروا في معسكرات المتشردين والأشخاص الذين تدمرت بيوتهم .

كان جميع هؤلاء من الساسة السابقين وضباط الجيش وأساتذة الجامعات والاكاديميين أو رجال الدين . وتشابهت رواياتهم حول المعاناة التي تكبدوها تحت سطوة النازيين وكيف أنهم هربوا المعلومات حول ظروف وأحوال زمن الحرب إلى أجهزة المخابرات البريطانية في استوكهولم . وشعر « فيفيدا » انه قد وصل إلى مبتغاه .

إلا أنه وقبل أى شيء آخر قد تأثر أشد التأثير بخوفهم من الروس واشمئزازهم منهم . وتوجهوا بناءً على توجيهاته إلى « ورزبيرج » لخلق وإنشاء خزان من المعلومات الجديدة حول الاتحاد السوفيتي ومركز يتم فيه وصول اللاجئيين من ليتوانيا حيث يتم استقاء المعلومات منهم واستجوابهم بشأن أغراض الاستخبارات .

على الرغم من أنهم كانوا بمثابة ائتلاف محير من الآراء المنفصلة والمتفاوتة جداً ، إلا أن الذى كان يجمعهم هو قناعتهم بأن الحرب العالمية الثالثة صارت وشيكة النشوب . وأخبر المونسينيور « ميكولاس كروبافيس » رجل الدين القوي الذى كان زعيم الـ « فليك » ، أخبر المستر « فيفيدا » بأنه ليس راضياً عن استعادة الامبراطورية القديمة إلا أنه في يوم من الأيام سوف يتحرك صوب الغرب .

وعلى الرغم من أن أكواما من الجثث كانت لاتزال راكدة بدون دفنها عبر القارة الأوروبية ، إلا أن تنبؤات « كروبافيس » لم تكن غير شائعة أو غير متفقة مع رفاقه وضحايا الحروب الأوروبية .

وفي الأيام الأولى من يونية عام ١٩٤٥ ، كتب « فيفيدا » مذكرة من ثلاث ورقات على الآلة الكاتبة مخاطباً فيها رئيسه وأسماء « تقرير حول الحكومة السرية في ليتوانيا » .  
واستخدم فيه لغة مؤثرة ، وأوضح محنة ومأساة الـ « فليك » الذين لا يرغبون سوى في إعطائهم الفرصة لتقديم قضيتهم إلى الممثلين المعتمدين الأمريكان نيابة عن ٣٠٠,٠٠٠ ليتوانى مطرودين من أوطانهم السلبية .

وفي تعليق اضافى ، قال « فيفيدا » : إن جميعهم يعربون عن سخطهم بكل عنف ويبدون أسوأ المشاعر المناهضة والمعادية للسوفيت ، ويوضحون أنهم هم والليتوانين عموماً لن يعودوا إلى ليتوانيا . ذلك أن هذه العودة تعنى للبعض « الموت المحقق ، وتعنى للآخرين النفى مدى الحياة إلى سيبيريا » .

وأبدوا مشاعرهم المريرة بأن « الأمريكان وسلطات جوازات السفر » اتهمتهم بالموالاة والتأييد للنازية نظير اتجاهاتهم وتوجهاتهم المعادية لروسيا . وظهر الخوف من النظام السوفيتى ليصبح دافعاً مسيطراً في تفكير المجموعة الكاملة كلها .

وحذف « فيفيدا » عمداً التنبؤات الوخيمة التى قال بها « كروبافيس » عن نشوب الحرب الثالثة برغم قناعاته الكاملة بنوايا السوفيت التى لم تكن تهدف إلى مواصلة الحروب .

وفي مقر قيادة الجنرال « باتون » ، تم قراءة التقرير الثانى لليفتنانت كما تم تسجيله . وبحلول شهر يوليو ، شق التقرير طريقه إلى أعلى عبر القنوات العسكرية إلى « روبرت ميرفى » المستشار السياسى للجنرال « لوسيسوس كلاى » ، قائد الحكومة العسكرية فى المنطقة الأمريكية .

وتعاطف القليل من الضباط فى مقر قيادة « كلاى » مع مخاوف وشكوك روسيا التى فرضها عليهم الألمان واللاجئون على نحو متواصل غير منقطع وعبروا عن مساندة الجنرال جورج مارشال وتأييده لكلمات أيزنهاور التى قال فيها : « إننى أمقت المخاطرة بحياة الأمريكين من أجل الأغراض السياسية البحتة » .

ولقد كان السوفيت لايزالون حلفاء للولايات المتحدة الأمريكية . ولهذا السبب ، لم يتم النظر بدراسة تقرير « فيفيدا » الذى كان يستحق متابعته وجديراً ببحثه ، على الرغم من أن الذى قدمه هو المستر « ميرفى » إلى وزارة الخارجية الأمريكية فى واشنطن ، حيث وصل فى شهر سبتمبر ، أى بعد شهر كامل من توقيع القوى الكبرى الأربع

لاتفاقية « بوتسدام » التي حلوا فيها حكومة ألمانيا وتعزيز ثبات الحدود القومية في أوروبا .

وفي ذلك الحين ، كان « فيفيدا » يبحر بالفعل من أوروبا للعودة إلى الحياة المدنية ، وكان عمله بمثابة حل للالغاز . إذ أن الانقسامات بين الشعوب الليتوانية في المنفى كانت أكثر عمقاً عما كان يتفهمه . وقال المونسينيور « كروبافيس » القسيس العدواني ، قال : بأن الـ « فليك » يتعين عليها إقامة حكومة في المنفى ذات مجلس عسكري لزعامة الفلاحين .

وأصر « ستاسيس لوزوزيتس » الدبلوماسي الليتواني الكبير في الغرب أصر على أن يمثل بنفسه شخصياً الحكومة القومية وأنه لن يتسامح أبداً مع تجريده من سلطاته وانتزاعها منه .

وفي خضم هذا العداء المرير والمستحکم والذي لاطائل من ورائه ، وصل الجنرال « ريموند شميتلين » من المكتب الثاني الفرنسي إلى « فيرزيبورج » في شهر سبتمبر . اتخذ « شميتلين » مقراً له وقاعدة في ليتوانيا قبل اندلاع الحرب وعرف جميع الشخصيات المحتشدة في فيرزيبورج . وتم دعوة الـ « فليك » لنقل مقارها إلى « توبينجين » في المنطقة الفرنسية حيث يتم تمويلها وتدريبها من أجل تعزيز جيش المقاومة للعمليات في المستقبل القريب جداً .

وتم قبول عرضه فوراً إلا أن بعض المنشقين كانوا يجادلون بأن الفلاحين الذين يقاتلون في ليتوانيا لن يتلقوا الأوامر من جماعة في المنفى ، وهي التي أنهت وقطعت تعاونها مع الألمان فقط حينما تبدت بوادر انتهاء الحرب ووضعها أوزارها .

وكان من بين أقلية المنشقين « ستاسيس زاكيفيس » المؤرخ الذي كان يبلغ من العمر الثالثة والثلاثين وكان قد درس في أكسفورد وكان يتميز بشعوره الوطني الجارف والقومية الطاغية .

وفي أثناء الحرب ، كان مستشاراً للحكومة الألمانية المحتلة . وهرب « زاكيفيس » مع الألمان في خريف عام ١٩٤٤ إلا أنه في شهر مايو ١٩٤٥ تدبر مسألة العودة إلى بلاده « ليتوانيا » من الدانمارك ليلتحق بالفلاحين .

وتم تحذيره قبل أن يستقل الزورق من أنه سوف يواجه الاعتقال فور وصوله على

أيدى رجال المخابرات السوفيتية المعروفة باسم لجنة أمن الدولة أو الـ « كى - جى - بى » .

ولم يكن معروفا لدى مجلس الـ « فليك » لدى عودته إلى ألمانيا في يوليو من عام ١٩٤٥ ، واتصل بالمستر « ماكيبين » وممثل آخر لأجهزة المخابرات البريطانية الا وهو الميجور « جون لودزوس » الذى كان أبواه قد هاجرا من ليتوانيا إلى بريطانيا منذ سنوات عديدة وكانوا يتحدثان اللغات بطلاقة .

وحيثما تفجرت الخلافات السياسية ، أغرى « ماكيبين » المستر زاكيفيس بالعمل لصالح المخابرات البريطانية السرية وليس المكتب الثانى الفرنسى ووصل زاكيفيس إلى « طونيجين » فى أواخر عام ١٩٤٥ مرتدياً ملابس جديدة وأنيقة ، ومستقلا سيارة ومزوداً بأموال نقدية ضخمة . كما كان يستعير أيضاً اسماً جديداً وهو « ستايس زيماننس » .

كان زيماننس نواة العملية الجديدة التى ستقوم بها المخابرات البريطانية السرية فى ليتوانيا . وانضم إليه الدبلوماسى الذى يدعى « ستايس لوزوريتس » وصحفى مشهور يبلغ من العمر الحادية والثلاثين كان قد هرب من الغرب فى أوائل عام ١٩٤٥ ، واسمه « جوناس ديكسنيس » .

وفى خريف عام ١٩٤٥ تطوع ديكسنيس للعودة إلى ليتوانيا ليقوم بتقييم موقف الـ « فليك » وهل كان فعلا ممثلا للفلاحين المحاربين المقاتلين أم لا وأيضا لتقييم مدى ونطاق الانتفاضة الناشبة ضد السوفيت .

وعرض « روبرت أندرسون » احد كبار ضباط الاستخبارات فى السفارة الأمريكية ، تقديم المال وأجهزة الراديو واللاسلكى والأسلحة لأى طالب لها يكون جادا ويستطيع أن يقيم شبكة معلومات تجسسية فى لاتفيا .

وقام بتشغيل اثنين من اللتوانيين للاتصالات مع أكثر المصادر أهمية وهو « هوجو جينترز » ممثل حزب « اولمانست » شبه الفاشى الذى كان يدين بالكثير من المبادئ الفاشية .

وفى اغسطس ١٩٤٥ ، طلب أحد ممثلى المخابرات البريطانية السرية من جينترز ان يختبر ويتحسس من « آرثر ارنيتس » إمكانية عودته إلى روسيا وإعادة فتح الاتصالات اللاسلكية بالراديو . وبعد ذلك بيومين ، أرسل جينترز تقاريره أن « ارنيتس » بحاجة إلى القليل من الإقناع .

ورحب بفرصة الخدمة من أجل القضية الوطنية . وكانت مهمة « أرنييس » هي العودة إلى « لاتفيا » ، واسترجاع جهاز الراديو الخاص به وكتب الكود والشفرة التي كان قد أخفاها إخفاء تاماً وبعبارة قصوى هناك منذ ثلاثة أشهر وإقامة الصلات مع السويد . وتتابع المزيد من التعليمات إلا أنه طمان بأن البريطانيين سوف يرسلون زورقاً لرحلة العودة .

وبعد ذلك بأسبوعين ، تم تجنيد عملاء ثلاثة آخرين هم : جانيس شميت وهو ضابط سابق في الجيش الألماني برتبة الليفتنانت وكان قد تم تجنيده لحراسة مشغل الراديو ، و « ليمونيس بيترسون » و « إدواردس أندرسون » وهما اللذان تقرر أن يشكلا فريقاً ثانياً .

وفي ليلة ١٥ أكتوبر ، اقترب الرجال الأربعة من ساحل وغابات « كورلاند » في زورق سريع غالى التكاليف مزوداً بالأجهزة ، إلا أن عواصف الرياح الهوجاء قلبت الزورق على بعد حوالي مائة ياردة من الشاطئ . وجعل الرجال الأربعة يكافحون الأمواج والرياح ويسبحون من أجل بلوغ الشاطئ وتركوا وراءهم الأسلحة والعتاد والأجهزة وإمدادات الطعام والمال ، متوجهين صوب الغابة .

وعند بزوغ النهار ، عثرت دورية حدود على الحطام والبقايا التي تدينهم وتجرمهم ، وكانت الأمواج قد قذفت بها إلى الشاطئ على الرمال ، وتسبب عن ذلك نصب مصيدة واسعة النطاق للقبض عليهم .

وبعد ذلك بيومين تم اكتشاف أمر كل من بيترسون وأندرسون . وانهارت مقاومتهما تحت وطأة التعذيب وكشف وجود « أرنييس » وتم إلقاء القبض على العميل وفعل ذلك المخابرات الروسية الـ « كى - جى - بى » بعد ثلاثة أسابيع من وصوله إلى ميناء « فيننسبيل » وحينذاك أرشد عن الراديو المختبئ وأعترف بتفاصيل العملية .

وعلى الرغم من أن رجال المنفى في السويد زعموا بأنه تم استخدام التعذيب لاستخراج الاعترافات من أرنييس إلا أن « لوكاسيفيك » كان دائماً يذهب إلى أن التهديد الخفى والكامل لا يزال كافياً لتوخي الحذر . ولم تبد أجهزة مخابرات الـ « كى - جى - بى » السوفيتية أية شفقة أو رحمة .

وأرسل « لوكاسيفيك » باستنتاجاته الأولية إلى رؤسائه . وقال : إن البريطانيين استأنفوا أنشطتهم المعادية للسوفيت التي كانوا يقومون بها قبل الحرب . وكان الدليل دامغاً لاسبيل إلى تفنيده على الرغم من أن الرجال الأربعة المزودين بأجهزة الراديو لم

يقترحوا القيام بعملية أخرى . وعلى أية حال ، كان العمل الإضافي مطلوباً .

وشق التقرير طريقه عبر القنوات الرسمية إذ وصل أولاً إلى « البيرت بونديوليس » ، من الاستخبارات المضادة ، وأخيراً إلى « فيكتور كوزينس » أحد النواب الأربعة لرؤساء الـ « كى - جى - بى » فى لاتفيا الذى أرسل تقاريره إلى « الفونس نوفيكس » وزير الداخلية .

وتم اتخاذ أربعة قرارات هامة اتخذها الوزير بدون استشارة كبار هيئة العاملين معه ، ولهذا السبب ، استدعى « نوفيكس » ، المستر « كوزينس » ، وأمّن من النواب الأربعة ، والجنرال « جانيس فيفرز » لمناقشة تقرير « لوكاسيفيك » .

واطلع « فيفرز » على تفاصيل عملية الخداع الخاصة بالـ « ترست » واقترح على الوزير أن تتم الموافقة من موسكو على شن عملية مضادة كلاسيكية . ألا وهى التظاهر أمام البريطانيين بأنهم فى الواقع ليس لهم مشغل راديو موالى فى الموقع وبعد ذلك ينتظرون تداعيات الأحداث .

وتم تقديم توصيات « فيفرز » وتقرير « لوكا سيفيكس » إلى الجنرال « سيرجى كروجلوف » ، نائب منطقة « بيريا » الذى كان يشرف على قمع الفلاحين الليتوانين . كان « كروجلوف » فى الاحتمال الأعظم أحد ضباط الـ « كى - جى - بى » القلائل الذين لم يدهشهم وصول العملاء البريطانيين .

وجاءت تقارير تقول بأن الاستخبارات السرية البريطانية استأنفت جهودها لاختراق الاتحاد السوفيتى .

وعلى مدار سنوات الحرب ، استخدمت « لجنة أمن الدولة » السوفيتية أو الـ « كى - جى - بى » بالاشتراك مع المخابرات الحربية البريطانية المعروفة باسم « أم - أى - ٥ » والمخابرات السرية البريطانية ، العملاء الألمان المأسورين لنقل رسائل الراديو اللاسلكية إلى مقار استخباراتهم الرئيسية ، وأعطوا الانطباع بأنهم إنما كانوا يعملون لصالحهم ويرسلون بالاستخبارات الحقيقية .

وتماماً كما انخدع هتلر وظن أن الإبرار الأرضى للحفاء على القارة الأوروبية فى يونيه ١٩٤٤ سيكون فى منطقة « كاليه » وليس فى نورماندى ارتبك وشوش الجيش الأحمر السوفيتى ، جهاز « فيرماخت » أثناء تقدمه صوب الغرب .

على أية حال ، فقد « لوكا سيفيكس » إمكانية استخدام « أرنييتس » أو الآخرين من أجل عملية خداع مماثلة . أحد النواحي الأقل احتراماً للجنرال « جانيس فيفرز » فيما يتعلق بتاريخه الماضى كانت سمعته بأنه « سادى » أو يعانى من السادية : « وهو انحراف جنسى يتلذذ فيه المرأ بإنزال صنوف العذاب لمحبيه » - وذلك فى سجن « لوبيانكا » فى موسكو أثناء حملة التطهيرات الكبرى التى قام بها ستالين ضد خصومه وأعدائه .

إذ أصبح التعذيب آنذاك عمله الروتينى والمعتاد والدورى المنتظم حينما عاد إلى « ريجا » المطلة على البحر البلطى . وفى حالة « أرنييتس » والعملاء الثلاثة ، أصدر « فيفرز » أوامره بعدم الرحمة أو إبداء أية شفقة ، وأطاعته زبانيته .

وكان المطلب الأساسى حينذاك هو إيجاد والقبض على مشغل راديو كان يعمل الاتصالات مع السويد إبّان الحرب . . وطلب « لوكا سيفيكس » الاجتماع مع « اوجستوس برجمانيس » ، فى احد أقفاص أسرى الحرب فى منتصف شهر مايو . كان برجمانيس قد خدم فى الجيش الألمانى وعمل مشغلاً للراديو لصالح جماعة « كوريليس » .

وكانت العقبة الكؤود الأولى هى كيفية إقناع « برجمانيس » لىخدم مع أعدائه السابقين . وفى أواخر ١٩٤٥ ، تم نقل برجمانيس من أحد معسكرات أسرى الحرب إلى زنزانه فى مقر للمخابرات السوفيتية الـ « كى - جى - بى » فى أحد أركان شارعى « لينين » و « أنجلز » بمنطقة « ريجا » على البحر البلطى .

وثارت ثائرة « برجمانيس » وأخذ الرعب فأعرض عن محاولات تجنيده . إلا أن توتره زال عنه حينما تحدث « لوكا سيفيكس » عن اهتمام الـ « كى - جى - بى » بعقاب أولئك الذين هم أعداء حقيقيون للشعب السوفيتى ، وليس أولئك الذين هم على شاكلته والذين تم تعبيئتهم .

أوماً « برجمانيس » برأسه موافقاً على أن مستقبه هو فى روسيا . والذى أدهشه أن رجل المخابرات السوفيتية رد عليه أنذاك جواز سفره وسائر أوراقه ، وإذناً بمغادرة الـ « كى - جى - بى » . أما الشرط الوحيد الذى أطلق سراحه بعد تعهده بالوفاء به فهو أن يبقى ويمكث فى بيت توفره له استخبارات الـ « كى - جى - بى » .

وفى الأسابيع التالية ، نمت « لوكا سيفيكس » وأصر الصداقة معه . وعقد معه

محادثات وأحاديث طويلة عن حروبهم المتوالية ، وشبابهم ، وعائلاتهم ، والمستقبل .  
وبنهاية الأشهر الثلاثة ، ذكر « لوكا سيفيكس » لهذا الصديق الصدوق بأنه في حاجة  
إلى شخص ليقوم بعمل الاتصالات اللاسلكية بالراديو على بريطانيين في السويد .

وفي مارس ١٩٤٦ ، شرع برجمانس وكان « لوكا سيفيكس » جالساً بجواره في  
استقبال إشارات ونداء « أرنييس » التي جاءت تماماً في الوقت المضبوط الذي اتفق مع  
الجدول الزمني المحدد والذي سائر تعليمات « أرنييس » .

وبث الرجال ثلاثة اتصالات كل أسبوع على مدار الأشهر الثلاثة التالية ، بإشارة  
موجه قصيرة وبدون أن يلقوا أية استجابة . وفي النهاية وبحلول منتصف شهر يونيه ،  
جاء الرد على رسالة « برجمانس » وعندها فصل ضابط استخبارات الـ « كى - جى -  
بى » الراديو ، بدون الاعتراف بإرساله هذه الرسائل ، وقال : « دعمهم يتعجبون لماذا  
افتقدنا فجأة اتصالاتنا المجدولة . وسوف تتحول دهشتهم إلى قلق والقلق سوف  
يتحول في النهاية إلى راحة والراحة إلى تصديق .

وبناء على أوامر « موسكو » ، احتفظ « لوكا سيفيكس » على مدار ثلاثة أسابيع  
بصمته حينما كان يشغل الراديو في ستوكهولم يرسل ويبث بصفة دورية إشاراته  
حسب الجدول الزمني .

وعلى مدار الأسابيع التالية ، استطاع مشغل الراديو في السويد أن يلتقط سلسلة  
من الأسئلة كانت لندن تأمل من ورائها أن تقدم دلائل قاطعة حول هوية « بيرجمانيس  
ومصداقيته » . فأجاب « بيرجمانيس » بالرفض قائلاً : كلا ، إننى لم أتقابل مع أرنييس  
إلا أننى استطعت العثور على جهاز الراديو الخاص به . واكتشفت حيثياته من رسالة  
وصلتني من آخرين في تنظيم « كوريليس » .

فحدث أن تلاشت شكوك رجال الاستخبارات في برودواى قليلاً . إلا أنهم بقوا  
شكاكين ومرتابين حول امتناعهم عن ذكر أى شىء حول المهمة الجديدة للمستر  
« بيرجمانيس » .

وتغير المزاج السياسى في وزارة الخارجية تغييراً جوهرياً منذ شرع « أرنييس  
بالخروج برحلته البحرية المشثومة . وفي صيف ١٩٤٥ ، أزعج دفاء المعاملة بين الإدارة  
الأمريكية والزعيم السوفيتى ستالين ، أزعج « أرنييس بيفين » ، وزير الخارجية  
البريطانى .

كان « بيفين » وهو أحد زعماء نقابات العمال المشاهير الذى كانت أراؤه وسياساته من شأنها تشكيل الكثير من عمليات المخابرات البريطانية السرية ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية داخل روسيا على مدار السنوات المتبقية من ذلك العقد من الزمان ، عانى من المؤامرات وازدواجية العملاء والجواسيس وهم الذين اخترقهم الشيوعيون أثناء سنوات ما قبل الحرب .

ولذلك أصدر نصائحه قائلاً : « ليس بوسعك أبداً أن تتعامل مع الروس إذا كنت تكذب عليهم ، أو إذا رقدت على الأرض وسمحت لهم بأن يطأوك بأقدامهم .

واستمرت تحفظات وضبط النفس عند « بيفين » إزاء « مولوتوف » و « ستالين » ، الذى كان يتهمه « بيفين » بأنه - أى الزعيم الروسى - مسئول مسئولية شخصية عن مصرع ما لا يعد ولا يحصى من الفلاحين السوفيت ، استمرت حوالى الشهرين من الزمان .

وعندما تقابل وزراء خارجية الدول الأربعة المتحالفة لأول مرة فى لندن فى سبتمبر ١٩٤٥ ، صارت عدوانية « بيفين » واضحة جلية لأول وهلة . إذ انتقد علانية توريدات البترول التى كان يقدمها الروس لهتلر ليقصف لندن بالطائرات .

وكلما زادت الخلافات ، ارتفعت حدة التوتر . وزمجر بيفين معنفاً المسئول الروسى قائلاً : « إنك إنما تتصرف كما لو كنت نازياً » . وبعد أن تمت الترجمة خرج « مولوتوف » من المؤتمر غاضباً بسرعة . وفى اليوم التالى ، اعتذر بيفين إلا أن مخاوفه بشأن السوفيت واحتمال انتهاكهم للمصالح التقليدية لبريطانيا تأكدت بسبب مطالب « مولوتوف » لإقامة قواعد سوفيتية فى ليبيا وأماكن أخرى فى دول البحر المتوسط .

وتزامنت هذه المطالب مع انتهاكات الاتفاقيات والقلقل فى أوروبا الشرقية واليونان ، والاضطرابات الجديدة فى الهند وهى التى بدت كما لو كان مثيروها هم السوفيت وأصر بيفين على عدم تسريب أخبار تشدده إلى الصحافة على الإطلاق ، واعترف لمساعديه قائلاً : « إن الأمر الذى يبعث على الاكتئاب هو المدخل الواقعى والأمانى للروس والغياب الكامل لآية اعتبارات خاصة بأهمية السلام لصالح ونفع الجميع .

وفى الشهر التالى « شهر أكتوبر » اتفق « بيفين » مع المستر « أتلى » على أن الوقت قد حان حيث يجب ان يكون هناك مكاشفة وحسم مع الامبرياليين الأيديولوجيين . غير

أن البريطانيين كانوا يتفاوضون من موقف الضعف كما أن عواطفهم لم يكن يشاركهم فيها البيت الأبيض الأمريكي .

ولقد تأرجح ترومان منذ أن أصبح رئيساً لأمريكا شأنه في ذلك شأن تشرشل ، بين الإشادة بستالين وأمانته ، وبين تحذير الروس من أنهم بصدد التخطيط لفتح بلدان العالم كلها . وكان ترومان يعتقد مثل وزير خارجيته جيمس بيرنيس الذي كان يعاني من الخوف المرضى من الانجليز ، يعتقد أن التفاوض مع ستالين وترومان معادل للمؤتمرات التي كان يحكيها أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي المتمردون في الكونجرس .

إلا أن الرئيس شعر في خريف عام ١٩٤٥ بأنه قد خدع ، والذي خدعه هو الكرملين . وبعد انقضاء احتفالات الكريسماس ، اشتكى ترومان في خطاب أرسله إلى وزير خارجيته بشأن الاستيلاء الروسي على أراضى في بولندا وفارس ( إيران حالياً ) ، والتعقيدات الجديدة ضد تركيا .

وسرعان ما اجتمع الرجلان علي اليخت الرئاسي « ويليا مزبيرج » الراسى في نهر « بوتاماك » . واستبد الغضب بالرئيس ترومان فصاح : « مالم نجابه روسيا بالقبضة الحديدية والخطاب شديد اللهجة فإن حرباً أخرى سوف تندلع ... واستطرد قائلاً : « ليس هناك إلا لغة واحدة يفهمونها ، وتلك هي لغة الجيوش والأرقام : كم عدد الفرق العسكرية التي تمتلكها ؟ وأعتقد أننا لا يجب أن نركن إلى الحلول الوسط بعد الآن . لقد ضجرت من تدليل السوفيت » .

وانعكست إحباطات وشكوك ترومان علي الدبلوماسيين الأمريكيين والبريطانيين في موسكو الذين علموا الكثير عن مخاوف « بيفين » ، على الرغم من أنه كان لا يزال محالاً من الناحية السياسية إعلان أية شكوك حول حليفهم الروسي في زمن الحرب .

أرسل « فرنك روبرتس » الوزير الصغير ( السفير ) من السفارة البريطانية في موسكو بالأدلة على تعاظم هجمات الصحافة الروسية على بريطانيا وبخاصة سياساتها إزاء ألمانيا . وأرسل بتقاريره التي جاء فيها أن ماكينة الدعاية السوفيتية قالت بأن نوايا الكرملين هي استغلال ضعف بريطانيا لتدمير الإمبراطورية .

وكتب يقول : « كان هناك إحياء هائل للأيديولوجية الماركسية المنشودة الأمر الذي ترك الانطباع بأن الشعب السوفيتي هم الشعب المختار وأنهم مواطنون بعالم

معادى . وكان تفسيره للأمور تفسيراً مزعجاً إذ قال : إن روسيا صارت في حالة مزاجية تدعوها إلى الحرب باستمرار وهو أمر من شأنه أن يفضى إلى القيام بمغامرات عسكرية في فصل الربيع .

وثمة حادثة واحدة استقرت على وجه خاص إزعاج ومخاوف روبرت ألا وهي اتهام « مولوتوف » في حالة تعبئة ، وأنها كانت تتعاون مع الجنرالات البولنديين ، والروس البيض المعادين والمناهضين للشيوعية ، في ألمانيا والنمسا وإيطاليا .

وزعم « مولوتوف » أنهم إنما كانوا يعدون العدة لخوض الحرب في المستقبل . وثمة اتهام مشابه نطق به « اندريه فيسينسكى » في نفس الوقت ، وكان يشغل منصب النائب العام إبان المحاكمات التي وقعت على عهد حركة التطهير الكبرى التي قام بها ستالين ضد خصومه .

حيث قال : إن الروس البيض تم حشدهم في الموانئ البريطانية وأن الاستنتاج الوحيد الذى يستطيع استخلاصه هو أن بريطانيا كانت تعد العدة لتكرار نفس التكتيكات التي كانوا يستخدمونها في أعقاب اندلاع الثورة البلشفية .

وكان بين هؤلاء السياسة في وزارة الخارجية الذين قرأوا تقارير « روبرتس » وتحذيراته ، أحد الدبلوماسيين صغار السن وهو « توماس بريميلو » الذى سبق له الخدمة في القنصلية البريطانية في « ريجا » عام ١٩٣٩ .

ولقد تصاعد عداء « برايمالو » ضد الروس في أعقاب الحرب لدى سماعه عن اختفاء الكثير من أصدقائه من دويلة « لاتفيا » أثناء الاحتلال الروسى الأول . وبعد قراءة التقارير عن أن الزعماء السوفيت أصبحوا « مدمنين بدراسة التاريخ » وأن الصراع الناشب في القرن التاسع عشر مع بريطانيا عاد يطل برأسه من جديد وأنه سوف يتكرر مرة أخرى .

وتنبأ « برايمالو » أن ألمانيا الغربية سوف تتحول إلى الشيوعية ، ويتبعها اليونان وإيطاليا وفرنسا ، بغض النظر عن أوروبا الشرقية التي سوف تتحول للشيوعية لامحالة .

وتم توصيل رأى « برايمالو » إلى « كريستوفر وارنر » رئيس القسم الشمالى بوزارة الخارجية البريطانية . وكتب وارنر - عندما علم أن وزارة الحرب البريطانية .

بصدد تشكيل خطط طوارئء للاقاة الصراع المتوقع مع روسيا وأن أجهزة الاستخبارات البريطانية السرية كانت تساند الجماعات المعادية للشيوعية - يقول لابد من مواجهة سياسات فرض القوة الشريرة التي ينتهجها السوفيت .

وجعل يقول : إنه « لايجب علينا أن نكون من الحماقة بحيث لناخذ كلام الروس على محمل الجد ، ولقد تعلمون أن سائر أنشطة روسيا في الأشهر الماضية تؤكد هذه الصورة ... ففي شرق أوروبا حيث توجد دول البلقان ، وفي بلاد فارس ومنشوريا وكوريا وفي المنطقة المشتركة بين روسيا وألمانيا ، وكذلك في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ، مساندة روسيا للأحزاب الشيوعية والجهود الشيوعية لاختراق الأحزاب الشيوعية وتأليف الأحزاب اليسارية تحت الزعامة الشيوعية ، في السياسة الاقتصادية الخارجية للاتحاد السوفيتي .. في كل حالة من صور الشئون الخارجية تظهر في الصحافة السوفيتية وإذاعاتها .... الخ

وقال وارنر محذراً سيكون ثمة مخاطر إذا فسر ستالين استجابة بريطانيا على أنها ضعف واسترضاء .

أوصى وارنر بأنه في أى مكان يوجد فيه حلفاء طبييعيون لبريطانيا يقاتلون الشيوعيين ، ينبغى على بريطانيا أن تقدم « كافة أشكال العون الأخلاقي والأدبي والمادى كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً » إلى القوات المناهضة والمكافحة للشيوعية .

ولقد ضخم من أهمية آرائه المحللون الاستخباريون في أجهزة المخابرات السرية البريطانية ، وكان بعضهم قد أطل في التأكيد والجدال بأن الكريملن لايزال ملتزماً بسياسته التي تستهدف السيطرة على العالم .

وفي عام ١٩١٨ في أعقاب الثورة الروسية ، أنشأت بريطانيا لجنة تيقظ ومراقبة لرصد تحركات البلشفية ، وفي الظروف الجديدة في أعقاب الحرب العالمية الثانية كررت بريطانيا المحاولة وأنشأت لجنة جديدة خاصة بالشئون الروسية من أجل تنسيق استجابات بريطانيا وردھا على أية هجوم روسى طويل المدى ضد الغرب .

واجتمعت اللجنة الروسية في أولى لقاءاتها في ٢ أبريل عام ١٩٤٦ وتزامن ذلك الاجتماع مع أول تغيير في السياسة في واشنطن . إذ وافقت هيئة الأركان المشتركة السوفيتية رسمياً على الاعتراف بأن روسيا صارت « أعظم تهديد ضد الولايات المتحدة في المستقبل المتطور » .

و اتخذت قرارات بإنشاء قواعد عسكرية تحيط بالاتحاد السوفيتي من كل الجهات بدءاً من جزيرة جرينلاند وأيسلندا عبر القطب الشمالي وحتى « أوكيناوا » .

وفي اليوم التالي أرسل « جورج كينان » المسئول الأول في السفارة الأمريكية في موسكو برقية من حوالي ٨٠٠٠ كلمة إلى مسئولى وزارة الخارجية الأمريكية طالبت استيضاحاً وشرحا للعداء السوفيتي في مواجهة رغبة واشنطن بإقامة علاقات صداقة . وأصبح كينان أيضاً في حالة وهم وارتباك بشأن تصرفات الزعيم السوفيتي ، ونجا منه في أعقاب كلمة ألقاها ستالين يوم ٦ فبراير في مسرح البولشوى ، اتضح منها نزوعه للحرب والقتال .

وقال : إن الزعيم السوفيتي يعتقد بأن بلاده محاطة بعواصم معادية يتعين على روسيا مقاتلتها ومحاربتها في القريب العاجل . وأكد على محاولة السوفيت زعزعة استقرار الغرب اعتقاداً منهم بأن الانسجام الداخلى للمجتمعات الغربية لا بد وأن يتم تمزيقه وبث الفوضى والخراب كشرط أساسى لضمان الأمن للسوفيت .

وكتب « كينان » في تقريره يقول : « إن مواجهة السوفيت تحتاج إلى نفس الاستراتيجية المتكاملة كما لو كنا في حالة قتال في حرب شاملة طالما أن السوفيت يمثلون تلك المخاطر الجمة لوجودنا ومصالحنا » .

تم طباعة وتوزيع تقرير « كينان » بين مئات كبار المسئولين والساسة وصناع القرار الأمريكى ، وعلى الرغم من أن البيت الأبيض كان لا يزال مصراً على الحفاظ على مواقفه الودية إزاء ستالين ، إلا أن الكثيرين يؤرخون بالانقلاب الأمريكى على الستالينية بوصول برقية المستر « كينان » . إلا إنه كانت هناك بعض الحدود والقيود .

إذ رفض ترومان ومسئولوه آراء « بيفين » بأن « مولوتوف » بلغ درجات الجنون بهجمات بل إنه تجاوز الجنون بالفعل ، وتجاهله أمر برقيات وتقارير المستر « كينان » الاستخبارية التى جاء فيها أن السوفيت يتوقعون من كل من فرنسا وكل ألمانيا أن تتحولوا إلى الشيوعية .

وصارت الدلائل على الجاسوسية السوفيتية من الكثرة بحيث لا يمكن تجاهلها . وفي فبراير أخبر المسئولون الرئيس الأمريكى ترومان بأن « هارى وايت » مساعد وزير الخزانة ماهو إلا جاسوس سوفيتي وأن « الجيرهيس » بوزارة الخارجية الأمريكية تحوم حوله الشكوك والظنون .

وقالت تحقيقات أجريت في كندا أن إحدى حلقات الجاسوسية السوفيتية كانت تعمل هناك منذ عام ١٩٢٤ . وفي ١٥ فبراير ، ألقى البوليس الكندي القبض على ستة عشر شخصاً ووجه إليهم تهمة السعى لكشف وفرض أسرار القنبلة الذرية الأمريكية . وبعد ذلك بأربعة أيام ، تم إلقاء القبض على عالم الذرة البريطاني الدكتور « ألان نان » ووجهت إليه تهمة تمرير عينات من اليورانيوم المشع ( ٢٣٥ ) إلى أحد عملاء السوفيت . وكانت الأدلة ثابتة عليه بحيث أنه لم يملك إلا الاعتراف .

وظلت الحكومتان البريطانية والأمريكية في لندن وواشنطن صامتين على الصعيد العلني وكبح السياسة انتقاداتهم على مفضض وتمالكو انفلاته أعصابهم المتوترة إلا أن « كريستوفر وارنر » وكبار المسئولين الآخرين خشوا من أن الحركة الشيوعية العالمية مثل « الطابور الخامس » الألماني كانت تعد السوفيت بشبكة تجسس هائلة هدفها تعويض التعوذ البريطاني والأمريكي في جميع بقاع العالم .

إلا أن ونستون تشرشل حذر قائلاً : إن العداء الروسي يجب أن يتم إيقافه من أجل تفادي الانزلاق إلى « ظلام جديد » . وزعم بعد ذلك أنه كان قد أصدر أوامره إلى « مونتهجرى » إبان جمع وحشد السلاح الألماني لدى هزيمتهم الرايخ الثالث من أجل تكديسه حتى يمكن إخراجه بسهولة مرة أخرى إلى الجنود الألمان الذين يتعين علينا أن نعمل معهم إذا استمر التقدم السوفيتي .

واكد مونتهجرى على أنه أطاع الأوامر وفسرت موسكو مذهب تشرشل على أنه مقدمة هجوم سرى جديد . ولقد كانت العقبة أمام المخابرات البريطانية السرية لشن هجوم مضاد خطير هو إفلاس بريطانيا وحذر وحرص « بيغين » إلا أنه كانت هناك درجة كبرى من الشكوك السياسية الكافية التي سمحت لضباط الاستخبارات البريطانية بأن يتبعوا فطرتهم .

وبالنسبة إلى مخابرات أمن الدولة السوفيتية المعروفة باسم الـ « كى - جى - بى » فإن الدلائل الواردة من أوروبا الغربية تقول بأن البريطانيين أصبحوا للمرة الثانية وفي أعقاب الثورة البلشفية ، يحشدون ويجمعون ويجندون الشيوعيين المنشقين من أجل القيام بعمليات مستقبلية .

وفي أثناء الأسابيع الأخيرة من الحرب ، تقابلت الجيوش البريطانية والأمريكية في ألمانيا والنمسا مع آلاف الجنود الذين كانوا يتحدثون اللغة الروسية ولكنهم كانوا

يرتدون الزى الألماني . ولقد جند الألمان القوازقة والعناصر من جورجيا وأوكرانيا والقواز وبلدان البحر البطلى للقتال ضد عدوهم التاريخى إلا وهم الروس .

وفى آخر أيام الحرب ، هرب آلاف الأحياء من تلك الفرق العسكرية صوب الغرب ، فيما وراء قبضة الجيش الأحمر ، للاستسلام إلى الأمريكان والبريطانيين . وكانوا فريقا من الرعايا الروس البالغ عددهم حوالى المليونين الذين أنهوا الحرب فى الغرب ، واختلطوا مع سجناء الحرب المحررين . وفقا للمعاهدات السوفيتية تقدر الجميع هؤلاء أن يعودوا بمقتضى اتفاقيات « يالطا » .

ولقد كانت الاتفاقية بين الزعماء المتحالفين الثلاثة فى يالطا عام ١٩٤٥ معلماً هاماً من حيث نواحٍ كثيرة فى العلاقات القائمة على زمن الحرب . وكان تشرشل قد وافق فى أعقاب استسلام الألمان فى نهاية الحرب العالمية الثانية على اعتبار أن أى شخص من الرعايا السوفيت عشية اندلاع الحرب عام ١٩٣٩ سوف يتم تصفيته على أنه روسى بغض النظر عن رغباته أو أمنياته ، وبذلك سيتم تسليمه إلى ضباط الجيش الأحمر السوفيتى .

ومن الناحية النظرية ، بدأ أن هذه العملية ستكون بمثابة المهمة العسيرة غير الإنسانية . ذلك أن الجنود البريطانيين والأمريكين لن يتعاطفوا مع الروس الذين - لأسباب لايفهمونها - تطوعوا أو وافقوا على القتال إلى جانب صفوف النازيين .

ومن الطبيعى أن يكون لهؤلاء الروس مخاوف وأسباب تدعوهم إلى خشية سوء المعاملة لدى العودة طالما أنهم سوف يعتبرون فى أنظار الكريملن خونة . غير أن هذه المشاعر أو الاعتبارات لم يكن لها أية تقدير لدى الحلفاء الذين صاروا فى مايو ١٩٤٥ مثقلين بأعباء توفير الكم الكافى من الطعام والتسهيلات ، فكانوا يسرعون من ترحيل أسرى الحرب المحررين فى منطقة روسيا ، وأرادوا أن يرسلوا أية أسباب من شأنها أن تضرم ميزان الحقد لدى ستالين . وتم بالفعل شحنهم على عربات وقطارات إلى روسيا ، مما أثر على نفسية « بيل كويتن » الذى روى الواقعة وكان أحد الضباط الأمريكين الشبان آنذاك ، وكان يرفض ترحيلهم لسوء المال والضياع فى الاتحاد السوفيتى .

وبحلول منتصف شهر مايو ، احتشد الكثير من الضباط البريطانيين الذين بلغ منهم اليأس منتهاه فى تنفيذ المهمة الموكلة إليهم ، وبخاصة فى النمسا وبلغ عددهم ٣٥,٠٠٠ تقريباً أغلبهم من القوازقة .

ومن الدروس التي علمنا إياها التاريخ أنه في الأيام الأولى من السلام ، شرح الزعماء القوازقة للجنود البريطانيين الذين انتابتهم الحيرة والارتباك كيف أنهم ليسوا ولم يكونوا من الرعايا الروس ولكنهم كانوا ضحايا للإمبريالية السوفيتية ، ومع ذلك ساقطهم الأقدار إلى الأعداء الروس . وقد كانوا يبغضون الأباطرة والقيصرة ويثير غيائهم بالبلاشفة .

وليس هذا فحسب بل كانت الجنود القادمة من بلدان البحر البلطى يحاربون إلى جانب صفوف النازيين الألمان نكاية في الروس الذين احتلوا بلادهم وشردوا أهاليهم .

إلا أن الكثير من الجماعات الروسية الذين قاتلوا إلى جانب صفوف الألمان ، كانوا على صلة بوحدة « إس - إس » التي ارتكبت أنكى الفظائع والأعمال الوحشية في تاريخ الإنسانية . واكتشف المحققون في جرائم الحرب كيف أن أقلية من المجموعات كانت تخشاها أوروبا الشرقية أكثر من خشيتها وحدات « إس - إس » التي تنتمي إلى القوميات الخاصة بدولة « لاتفيا » على البحر البلطى . وكذلك « كتائب بوليس » ليتوانيا ، وفرقة « جاليزين إس - إس » الأوكرانية أو القوازقة .

ويقول « نيكولاي كرانسنوف » الحفيد الأكبر لأحد الجنرالات القوازقة المشهورين : « إنهم قاموا بالتجريد والسرقة كما لو كانوا من قطاع الطرق . وانتهكوا النساء وأحزموا النار في المستوطنات ، وإن سلوكهم المشين المهين ألقى بطلخة من العار سوف تجلج هؤلاء الذين قدموا القتال ضد الشيوعية ونفذوا المهام والواجبات بطريقة مشرقة وجريئة وجسورة .

أما الجنود البريطانيون في جنوبي استراليا فقد كانوا إما جهلة مما يدور في هذه الحروب من جرائم أو كانوا يعلمونها وأن ضحايا القوازقة على الأقل ليسوا من بين البريطانيين . وعلى وجه اليقين تأثروا من حكايات السجناء ومآسيهم والمشاق التي تكبدوها حينما ترجمت إلى اللغة الإنجليزية .

وبلغت القضية ذروتها ومنتهاها بنهاية شهر مايو حينما تلقى الليفتنانت جنرال تشارلز نايتلى ، قائد الفيلق الخامس طلباً من القائد السوفيتى عبر الخط الفاصل بين المناطق المتنازعة ، بعودة القوازقة .

وأعد الجنرال نايتلى العدة ليذعن ويطيع الأمر حتى أعلن الميجور جنرال « روبرت أربوثنوت » قائد الفرقة الثامنة والسبعين أنه رفض تنفيذ الأمر ؛ لأن القوازقة كانوا »

من المهاجرين القدامى » الذين حاربوا مع البريطانيين حوالى خمسة وعشرين عاماً من قبل وأصبحوا غير خاضعين لمقتضيات معاهدة « يالطا » .

ولما اقتنع ، وافق نايتلى على الضغط على الفيلدمارشال هارولد اليكسندر ، القائد العام للقوات . وكان أن صار الكسندر بطلاً محلياً بصفته قائد المتطوعين البريطانيين للحرب ضد الروس في منطقة دويلات البحر البلطى ، ومن أجل حماية استقلال تلك الدويلات ضد الروس .

رفض « الكسندر » مجادلات « كيتلى » الإنسانية . وأصر الكسندر الذى نقل عن تشرشل وإيدن تعليماتهما الشخصية ، على إطاعة الأوامر . وتم تسليم ٢,٠٠٠ ضابط قوزاقى إلى الروس حيث سيلقون الموت المحتم ، وصاحب ذلك مشاهد من التأثر البالغ والأحزان لدرجة أن بعضهم انتحر فى مايو ٢٩ ، بمدينة « جودينبرج » .

وفى أول يونيه ، أصدر الجنود البريطانيون أوامره لاولى الدفعات الباقية وقدرها ٢٣,٠٠٠ جندى وزوجاتهم وأطفالهم بركوب القطارات بدءاً بالشروع فى الرحلة . فتفجرت المخاوف والذعر وجعل الكثير من القوازة الذين كرهوا العودة ، جعلوا يلقون أطفالهم وأنفسهم فى نهر « درو » المليء بالدوامات والأمواج .

وبحلول منتصف شهر يونيه ، حينما بدا أن العملية اكتملت مراحلها ، هرب حوالى ٤,٠٠٠ من الترحيل الإجبارى . غير أن عواقب ذلك كانت وخيمة إلى أبعد الحدود وانتقل ١٠,٠٠٠ أكرانى هم أعضاء الفرقة الأكرانية الأولى وكانوا قد حاربوا مع الألمان فى بولندا واشتركوا فى المذابح المروعة ، انتقلوا بهدوء عبر جبال الألب إلى أحد المعسكرات البريطانية فى « ريمينى » .

وبعد وصولهم فوراً ، دمر معظمهم وثائق هويتهم الحربية وزعموا أنهم بولنديون ، وليسوا من الروس أو الأكرانيين من أجل إحباط ترحيلهم . وكان يتعين على بريطانيا أن تعتمد مزاعمهم الزائفة ، واضطرت العسكرية البريطانية والمسؤولون الحكوميون إلى تأييد مطالبهم .

ومكث البعض الآخر فى ألمانيا . وأرسل الدكتور « ألفريد فالدمانيس » نيابة عنهم - وكان وزيراً سابقاً للمالية فى دولة لاتفيا - أرسل نيابة عنهم المارشال الكسندر مذكراً إياه ببطولته المجيدة منذ خمس وعشرين عاماً سلفت . ومنذ ذلك الوقت ، كتب يقول : إن الكسندر كان رجلاً مثالياً نظر القوم إليه كصديق للشعب فى دولة لاتفيا .

وبعد ذكر أسماء الجنرالات اللاتفيين الذين تقابل معهم الكسندر أثناء الخدمة ، وكانوا جميعهم قد هلكوا سواء في السجون السوفيتية أو في سيبيريا . واشتكى « فالدمانيس » من أن ضباط فيلق لاتفيا في ألمانيا قد زجوا بهم عن طريق الخطأ في السجون الخاصة بمعسكرات المساجين .

وزعم أن ضباط لاتفيا وضعوا ثقتهم في المارشال البريطاني العظيم « سيك » باعتباره أم لهم الأخير في الخلاص من الظلم طالما أنهم لم يكونوا من المتطوعين بل من المجندين . وشعر الكسندر بالتعاطف معهم ، وقال « لقد كنت قائدهم وكانوا هم جنودى ، ولذلك فإننى أرغب في فعل كل ما أستطيع من أجلهم » وكتب بذلك رسالة أرسلها إلى وزارة الخارجية البريطانية .

ووافق « برايمالو » على أن « اللاتفيين » لم يستحقوا المصير الواقع عليهم وحشدهم مع ضباط وجنود فريق « إس - إس » المفضوب عليهم . وصمم الرجل الدبلوماسى على عدم فصلهم عن أسرى الحرب الألمان طالما أنه « من المستحيل التمييز بين أولئك الذين تم تجنيدهم من أولئك الذين تطوعوا بمحض إرادتهم . واقتنعت العسكرية البريطانية بأنهم جميعاً كانوا قد تطوعوا للحاق والانضمام إلى فرقة « إس - إس » .

وأرسلت رسالة أخرى نيابة عن ١٠,٠٠٠ عضو من المساجين الذين ينتمون إلى فريق « إس - إس » التابع لجمهورية استونيا ، إحدى دويلات البحر البلطى ، إلى المستر « بيغين » عن طريق السفير « أوجست نورما » قال فيها : « إن الأغلبية اضطرت قسراً إلى الانضمام إلى الفيلق الألماني ، وأنهم اضطروا للحاق بذلك الفيلق الذى كان الألمان يسيطرون عليه من أجل الانتقام من « الإرهاب الوحشى » الذى كانت تمارسه روسيا .

وتزامنت هاتان الرسالتان مع توسط المارشال جريجورى زوكوف للقائد مونتجمرى في برلين . جاء فيها أن آلاف من الرعايا الذين ينتمون إلى قوميات البحر البلطى والذين أسره في ألمانيا وألبسهم الأردية الألمانية والذى الألماني ، يجب أن يتم إعادة ترحيلهم بمقتضى اتفاقيات يالطا .

ووافق الحلفاء بمقتضى إعلان موسكو الصادر عام ١٩٤٣ على أن مجرمى الحرب يجب أن يتم إعادتهم للمحاكمة في المكان الذى ارتكبوا فيه جرائمهم . وحيث أن معظم جرائم الحرب النازية تم ارتكابها واقرافها في أوروبا الشرقية ، كان أمراً محتوماً

أن يكون هناك خلل في ميزان التبادل بين الرجال المطلوبين .

وفي ٢٨ نوفمبر ١٩٤٥ ، وصل أحد ضباط الجيش الأحمر في معسكر « زيديلفيم » لأسرى الحرب في بلجيكا ، وهو مركز تجميع وحشد لجميع رعايا لاتفيا ، الذين هم مطلوبون للترحيل إلى روسيا من جانب الكولونيل « أرفيدس كريبينز » لحاكتهم كمجرمى حرب .

أما المستر « كريبينز » فقد كان رئيساً سابقاً للاركان وقائداً عسكرياً لفرقة « إس - إس » اللاتفية ، وكان قد حارب متطوعاً مع الالمان على مدار مراحل الحرب . أما الميجور « تومسون » ، وهو محام بالجيش البريطانى الذى كان قد قدم الدلائل والبراهين الروسية ، وافق على أن هناك قضية واضحة منذ الوهلة الأولى وبالتالي أصدر التفويض اللازم بالانتقال .

ولقد اعتبر « برايمالو » أن قيادة « إس - إس » التى يتزعمها « كريبينز » فقد جعلت أنشطة الجندى تبدو « سوداء بعض الشيء » إلا أن تشارلز زارينز ، سفير لاتفيا أصر فى رسالة إلى وزارة الخارجية البريطانية على أن « كريبينز » كان رجلاً أميناً وطيباً .

وتم تجاهل انحياز « زارينز » فى تلك المناسبة إلا أن كريبينز من أجل إحباط عملية الانتقال حاول وارتكب محاولة انتحار فاشلة وأعلن أنه مريض جداً لدرجة أنه لا يحتمل السفر وأنه لا يصلح للسفر .

وفى نفس الوقت ، الذى تم فيه حماية المجرمين والقتلة ، تم تجنيد ٧٠,٠٠٠ ألمانى شرقى ، وفعل ذلك الجيش البريطانى ليصبحوا أعضاء بالجيش البريطانى للخدمات الحربية . وزعم البريطانىون أن الأوربيين الشرقيين كانوا من العمالة الرخيصة وأنهم تم تجنيدهم من أجل رفع حطام وأنقاض الحرب ، والاضطلاع بالمهام الشاقة ، إلا أن السوفيت أصرروا على أنهم قوات شبه عسكرية للاستخدام فى الحرب فى المستقبل ضد روسيا .

ولقد كانت هناك أسباب قوية تدعو السوفيت للشك حيث أن الكولونيل « أرفيدس كريبينز » لدى شفائه كان قد تقرر أن يتم استخدامه فى الجيش البريطانى .

وفى شهر مارس ، تم الدعوة لعقد مؤتمر « ليببيك » لدراسة التقارير التى عاد بها « جوناس ديكسينس » .. الذى هرب بنفسه إلى خارج أراضى ليتوانيا . وأخذ يشرح

« ديكسنيس » كيف أن شركاءه في عملية الهروب ثم اللقاء القبض عليهم . وحدث أنه لم يتم أى أحد بتحرى الظروف أو الاستقصاء عنها بالتفصيل .

وكان كل من « ماكيين » و « زيماناس » أكثر قلقاً واهتماماً حينما سمعوا أن الـ ٣٠,٠٠٠ فلاح التشطين الذين كانوا يسحبون للسوفيت أخطر مصادر القلق والعناء ، صاروا لا يثقون في تنظيم « فليك » لأن زعماءه تعاونوا مع الألمان .

وقبل « ماكيين » و « زيماناس » حكم « ديكسنيس » وابتهجا من أن الرجل الليتوانى وافق على العودة مرة ثانية مزوداً بأجهزة الاتصالات اللاسلكية والمال لإقامة الصلات المباشرة بين جهاز المخابرات البريطانية السرية والفلاحين . وسافر للمرة الثانية بمصاحبة « فيتوناس ستانينيس » بطريق البر مستخدماً جوازات سفر مزورة والرشاوى .

ولما وصلت الأنباء بأن الاستخبارات البريطانية السرية قد قبلت إرداته « ديكسنيس » ، وعرف بها مجلس تنظيم « فليك » المجتمع في ألمانيا ، أصبح الانقسام بين صفوف حركة المقاومة هذه أمراً لأسبيل إلى رأيه أو إصلاحه .

واتهم تنظيم « فليك » المستر « ديكسنيس » بالتعاون مع النازيين وتجاهل « زيماناس » الذى كان أيضاً يستحق اللوم بنفس الدرجة ، تجاهل تلك التدابير الانتقامية كان ضباط المخابرات البريطانية مهتمين بدس العملاء الموثوق فيهم إلى داخل المنطقة . أما انشطتهم على زمن الحرب فكانت بمثابة التاريخ الذى لاصلة له الآن بالحوادث الجارية .

وفي ليلة ٦ أغسطس ١٩٤٦ ، أبحر زورق صيد مزود بكافة الأجهزة والمعدات في هدوء عبر موانئ « لاتفيا » ولما وصل إلى مبتغاه ، قفز رجلان يحملان حقائب كبرى على الشاطئ واختفيا في الظلام الدامس . وكانا عميلين للمخابرات البريطانية للعمل داخل خطوط روسيا .

لم تكن تلك العملية جديدة على المستر « تومسون » ، ذلك أنه كان قد قام بعبور البحر أحد عشر مرة من قبل إبان الحرب وأغراه ذلك للاضطلاع بهذه الرحلة البحرية الأخيرة ، على أمل الوفاء بالوعود التى قطعتها المخابرات البريطانية له بإعطائه المال النقدى والمزايا المالية لدى عودته .

وكانت جماعة « كوريليس » وعلى رأسها « زاندى » الذى عمل أيضاً مع « فالديمارس جينترس » حتى مايو ١٩٤٥ ، كانت مشهورة وكذلك المستر « زاندى » الذى عرف بأنه أحد دعاة القومية والمحاربين عن استقلال بلادهم . ولقد أوضحت متعلقاته الشخصية فيما بعد كيف أن أجهزة المخابرات البريطانية السرية لم تكن تهدف فحسب إلى بث أجهزة الراديو وأجهزة الاتصالات اللاسلكية داخل لاتفيا ، وإنما كانت تهدف كذلك إلى تكوين شبكة كبرى من الجاسوسية الدولية .

كانت استعدادات العملية تستهدف أساساً التعقيم على الصلة التى تربط بين منفذها وبين أجهزة المخابرات البريطانية السرية . وكان المستر « جانيس لوكينز » أحد دعاة القومية الشباب الذى نظم الرحلة الفعلية ، غير عالم بهذه الصلة . كما كان « لوكينز » على اتصال بـ « هوجو جينترس » الرجل الذى يعتنق كثيراً من المبادئ الفاشية إلا أنه لم يكن فاشياً تماماً ، وكان قد جمعت بينه وبين « روبرت أندرسون » العلاقات الطيبة فى السفارة الأمريكية .

وبرزت الفكرة أساساً من خلال حديث بين « جينزس » و « لوكينز » بأن يتم جمع التبرعات من الرعايا اللاتفيين فى المنفى وأحد القساوسة السويديين من أجل الحصول على زورق سريع والأجهزة والعتاد اللازم . وكان هذا القسيس يعمل نيابة عن وكالات الاستخبارات الانجليزية فى الخفاء .

وبعد أن هبطا على أرض الميناء ، شق الرجلان طريقهما إلى خارج قرية الصيد المشرفة على البحر متوجهين إلى بيت والد « زاندى » قلما دخلاه توجه زاندى إلى الغرفة العليا حيث شرع فى بث المعلومات باللاسلكى لتأكيد وصولهما الآمن فى حين قام « تومسون » بفك تحميلات البنادق الآلية والمسدسات والزخائر ليفحص أن كل شيء على مايرام وأنه جاف لم تصبه الماء .

وحدث بعد ذلك أن أصابت بعض التلفيات جهاز الإرسال الخاص بالمستر زاندى ، بعد أن كان قد قطع شوطاً فى العملية ، وسار سيراً حسناً على مسار تنفيذ كل الخطوات المتفق عليها . إذ جاءته الرسائل اللاسلكية تقول : بأن الجهاز يعانى من التشويش وأن رسائله لاتصل واضحة ، واقترح عليه الاتصال بمشغل راديو من رجال المخابرات البريطانية اسمه « برجمانيس » لإصلاح تلك العلة .

وواصلت أجهزة المخابرات البريطانية اتصالاتها مع المستر « برجمانيس » على

الرغم من الشكوك الخطيرة . وبرغم أن توضيحاته وشروحه بدت معقولة ، إلا أن رسائله على مدار الأشهر الماضية كانت غريبة بل الأكثر من ذلك أنها كانت هستيرية . ومع ذلك ، حيث أن موقف « زاندى » صار موقفاً بائساً وعصيباً ، كانت المخاطرة تستحق العناء والمغامرة الواجبة .

وفي أوائل نوفمبر ١٩٤٦ ، تلقى بيرجما نيس رسالة من السويد تم أيضاً إرسالها إلى « زاندى » تنصح المستقبلين بأن يتوجها إلى اجتماع في منزل إحدى النساء العجائز في « جالجافا » بالقرب من الميناء الكبير على البحر البلطى الذى يطلق عليه اسم « ريجا . تلقى « بيرجما نيس » تدريباً جيداً ونصائح هامة ، عندما وصل إلى مكان الاجتماع . حيث أجاب بسهولة على كافة تساؤلات المستر « زاندى » وبدا وجود راديو يعمل أمراً مهدئاً لمخاوف المستر « بيرجمانيس » . ووافق « زاندى » على أن رسائله يجب أن يتم نقلها وبثها عن طريق « بيرجمانيس » وأصدر أيضاً أوامره إليه لجمع الاستخبارات والمعلومات من أجل لندن .

ولدى عودته ، قال زاندى للمستر « تومسون » : إن الاجتماع كان ناجحاً وإننى لأشعر بالرضا لأن المستر بيرجمانيس لا يعمل لصالح أجهزة المخابرات السوفيتية المعروفة باسم « لجنة أمن الدولة » ( كى - جى - بى ) .

وعلى مدار الأسابيع التالية أصبح نجاحات المستر « زاندى » تلقى المخاوف لدى رجال المخابرات البريطانية خشية انتضاح أمره وانكشاف عملياته .

وفي ستوكهولم ، جمع « جانيس لوكينز » المال اللازم لشراء وتدريب زورق أكبر لعبور البحر البلطى . واختار رجلاً محنكاً من لاتفيا واسمه « ايلمارس سكوبى » من أجل قيادة هذه المهمة الأخيرة .

ولقد كان « سكوبى » على مابدا رجلاً مثالياً واختياراً ناجحاً فهو ضابط في الطليعة الرائدة لفيلق إبان الحرب ، ولقد ترك السيرة الحسنة التى مؤداها أنه مناهض مثالى ضد الشيوعية ، وكيف أنه استطاع أن يقتل فى الأيام الأخيرة من عام ١٩٤٤ الكثير من الروس كهدف من أهدافه التى آلى على نفسه أن يحققها .

وعلى مدار معظم عام ١٩٤٥ ، عاش هو وزوجته وأتباعه الثلاثون فى غابات كورلاند ، مسلحاً بالأسلحة الألمانية ، وقام بعمليات اضطهاد وإزعاج للفلاحين من أجل

الحصول على الطعام الكافي لإعاشتهم . وبحلول أواخر شهر الصيف ، أصبحت فرقة  
المقابلين التابعة له في حالة من العوز والفقر ، وصارت تحيط بها المخاطر من كل صوب  
وناحية بدرجة متزايدة .

وفي ذات ليلة ، فوجئوا بإحدى دوريات الجيش الأحمر ونجا « سكوبي » من الموت  
بأعجوبة عندما أطلق النار على أحد الضباط الروس الذي كان قد تمكن منه فأرداه  
قتيلاً . وعندها أمر أتباعه بالرحيل إلى السويد قائلاً إننا لا يمكن أن نجلس هنا في انتظار  
نشوب الحرب ، واقترح أن يستقلوا زورقاً للإبحار إلى السويد .

وفي خضم تخطيطهم لعملية الهروب ، في ٤ أكتوبر ، أسر ال « كى جى بى » زوجة  
« سكوبي » . وعلى مدار الأيام التالية ، تعرضت المرأة التي جردوها من ملابسها  
وقيدوها في أحد الكراسى للتعذيب من أجل استخراج معلومات منها واعترافات بأماكن  
المجموعة التي تنتمي إليها .

ولكنها استطاعت تحت وطأة الألم والعذاب أن تتأمر على ضباط ال « كى جى بى »  
وخداعهم إذ قالت لهم: إنها سوف ترشدهم إلى ما يريدون ولكنها تطلب عدم  
مصاحبته إلا عن بعد حتى لا ينكشف الأمر وتهرب أفراد المجموعة . ولما وجدت أنها  
ابتعدت عنهم في الظلام مسافة كافية ، أطلقت ساقها للرياح واختفت وسط الأحرار  
واستطاعت العودة الى مكان زوجها ، ولكنها ظلت سنوات طويلة بعد ذلك تعاني من  
الآلام .

وتخفى المستر « سكوبي » في زى رجل المخابرات « كى جى بى » السوفيتية الذي  
سبق أن قتله ، وجعل يبحث عن زورق يمكنه هو وزوجته وأتباعه من الرحيل من تلك  
البقعة ، وفي ٢٢ أكتوبر أصدر أوامره بصفته رجل مخابرات روسي الى أحد الصيادين  
الذين يعيشون في قرية « جوركالين » بأن يقدم زورقه من أجل مهمة البحث عن قطاع  
الطرق وأشخاص مشبوه فيهم .

وتم إلقاء القبض على صياد السمك سيء الطالع خارج الميناء ، في حين أن الزورق  
شق طريقه في البحر وهو يقل بقية فريق المستر « سكوبي » متوجها الى « جوتلاند »  
لطلب حق اللجوء السياسي .

وقال « سكوبي » لزوجته : « إن السويديين لا يعرفون بالذى سوف يفعلونه  
معنا » وذلك مع حلول أعياد الكريسماس عام ١٩٤٥ ، حينما كانوا لا يزالون

محتجزين في معسكر اللاجئيين . وحدث أن زار مع « لوتجاس » مقر السفارة البريطانية ليعرض خدماته إلا أن المسئولين بالسفارة رفضوا خدماته واعتذروا له في أدب ودمامة خلق .

وأخبر « سكوبى » المسئول البريطانى أن طموحه هو الحصول على زورق ليعود به ويستأنف الكفاح فى لاتفيا . وصار الاحتياج إلى زورق هاجساً يؤرق الرجل ، وهو الهاجس الذى تفاقم حينما أرسله السويديون للعمل فى غابات الشمال ، فصار على بعد ٢٦ ساعة بالسيارة من زوجته . وفى صيف ١٩٤٦ ، انكشفت عنه الغمة وزالت عنه المحنة . إذ كتب « جانيس لوكينز » بأنه يحتاج المساعدة لإعداد زورق من أجل رحلة خاصة .

كان « لوكينز » غير مدرك لمشكلات الراديو التى يعانى منها « زاندى » وبنهاية شهر أكتوبر من عام ١٩٤٦ ، جند « لوكينز » أربعة رجال آخرين من لاتفيا كطاقم له أما الشخص الخامس الذى عينه « جنترس » فقد تقرر أن يقيم فى لاتفيا كمشغل لراديو الاتصالات اللاسلكية الخاصة بأجهزة المخابرات البريطانية السرية .

وفى ١٧ ديسمبر ، فى الوقت الذى كان فيه « سكوبى » ينهى ترتيباته ويضع لها اللمسات النهائية ، وصل وسيط غير معروف هو الذى وصفهم « سكوبى » فيما بعد بأنه « الكولونيل - وصل إلى الرصيف البحرى وأفرغ حمولة حقيبتين بنيتين . كانت المحتويات تتحدث عن نفسها : وهى جهازان من أجهزة الاستقبال والإرسال ، وراديو جديد وجهاز إرسال وبنديتان أمريكيتان من عيار ٩ مم ، وثلاثة مسدسات ، وذخائر ، وصندوق علاج وأدوية .

أخفى « سكوبى » والطاقم الذى معه بكل عناية الأشياء فى أماكن سابقة الإعداد . أما المصدر لكل هذه الأشياء فهو أحد الرجال من استونيا ، هكذا قال سكوبى للطاقم الذى معه . وعلى الرغم من طلبه لاختبار صلاحية الزورق ، أصر « لوكينز » أنه ليس هناك الوقت من أجل ذلك ، حيث إن رجالنا فى لاتفيا صاروا قلقين للغاية .

وأعطى الكولونيل للمستمر « سكوبى » حافظتين أخريين الأولى تحتوى على ١١,٥٠٠ روبيل ( وحدة النقد فى الاتحاد السوفيتى ) والأخرى تحتوى على أكواد جهاز راديو ومواقيت وجداول البث اللاسلكى . وقال له : لاتدع لى أحد أبداً مهما كان أن

يضع يديه على هذه الأشياء .

فدس « سكوبى » المظروف إلى إحدى الحقائق وأضاف ٣,٠٠٠ روبيل أخرى كان قد أعطاها إياه باليد إلى جيبه . ولم يكن سكوبى قد رأى مثل هذا المبلغ من المال قط فى الماضى وطوال حياته . وقال له الكولونيل وهو يسلم له طردين آخرين صغيرين « إليك شىء آخر إضافى ، ثمانية غطاءات زجاجية كغيارات لجهاز الراديو أعطها إلى مشغل الراديو حينما تصل » .

وكانت تلك الأشياء بمثابة قطع غيار لجهاز إرسال المستر « زاندى » المهم أخفى « سكوبى » الحقائق داخل أجهزة الملاحة . وكلفه بالمزيد من التعليمات إذ قال له : مهما يحدث من أمور ، يجب ألا تدع الزورق والأجهزة تقع فى أيدي الروس . وإذا أمسكوا بك فى البحر ، يتعين عليك أن تضرب النار فى خزانات الوقود وتهلك مع الزورق . وإذا وجدت لظروف قهرية وجوب مكوثك فى لاتفيا ، وأمسكوا بك هناك ، فلا يجب أبداً أن تقول إلا أنك تسللت عن طريق ألمانيا . ولا يجب أن تكشف تحت أية ضغوط أنك قد جئت بالمساعدة الأمريكية من السويد .

وشرعت سفينة « هاجبارد » فى الإبحار بعد يومين وعلى ظهرها ضابط بحرى سويدي هو الذى أبحر بها عبر أرخبيل ستوكهولم الملىء بالصخور صوب « جوتلاند » وذلك قبل الانتقال إلى زورق آخر كان ينتظر فى الخارج عند البحار العالية . وأبحر « سكوبى » إلا أنه سرعان ما رصدته إحدى الدوريات البحرية السويدية . غير أن الزورق سبق الدورية ، ولكن عند الوصول فى ميناء جوتلاند تعرض الزورق للاحتجاز .

وبعد ساعتين ، وعلى الرغم من اكتشاف أجهزة الراديو والأسلحة ، وردت مكالمات هاتفية إلى « بيرتيل بوند » ، مقر الاستخبارات المضادة فى الجزيرة ، كان من شأنها أن تؤمن إطلاق سراح السفينة . بل أكثر من هذا ، فى ١٩ ديسمبر ، كانت سفينة « هاجبارد » فى الطريق وكان قصدها الوصول إلى خليج « سكالتم » فى أعماق المياه الإقليمية الروسية حيث لاتتوقع الدوريات السوفيتية أن تغامر السفن الأجنبية بالوصول إلى هناك .

كان المستر « زاندى » وحوالى عشرين لاتفياً ينتظرون صامتين بالقرب من

الشاطيء من أجل خلاصهم ، غير مدركين أن « لوكاسيفيتش » وتجريدة كبرى من المخابرات السوفيتية الـ « كى - جى - بى » مختبأة بالقرب من مكان تواجدهم .

كانت سفينة « هاجبارد » متواجدة في أعماق المياه السوفيتية ، وتوجه صوب موقع الموعد المحدد حينما فقد « سكوبى » أعصابه فجأة . وعلى الرغم من أنه فيما بعد زعم أن البوصلة كانت تتأرجح بشدة ، إلا أنه في حقيقة الأمور كان يخشى من أن يضيع الزورق ويتعرض للانكشاف وافتضاح أمره فيما بعد في ضوء النهار .

فأصدر أوامره بالالتفاف نحو الخلف بزاوية درجتها ١٨٠ وبسرعة بالغة في البحر ليخرج من الموقع المحاصر . وفي الظهرية ، كانت السفينة تقترب للمرة الثانية من « جوتلاند » حيث تم التقاطها من جانب البوليس المحلى . لم يكن أمام « بيرتيل بوند » أية سلطات تخوله التأثير على قوات ذلك البوليس .

ولدى مثوله التحقيقات قال سكوبى : إنه يجمع التبرعات والأموال من أجل شراء هذه المعدات والهدف إطلاق سراح وإنقاذ الأهل والأقارب من برائن الأعداء فتم تحويله إلى ستوكهولم حيث عهد به إلى وكالة الاستخبارات المدنية .

وهناك مارست الزبانية أشد أنواع التعذيب والتنكيل بالمستر سكوبى فانهار تحت وطأة الشدة واعترف ، وأخذ يملأ اعترافاته أمام الضابط الذى أصر على أنه لن يطلق سراحه إلا بعد الاعتراف تفصيلاً بكل شىء وبأسرار العملية التى ضبطت متلبساً بالقيام بها .

وفعلاً أخبره بأنه يعمل لصالح الاستخبارات الأمريكية وجهازها الجديد الذى أصبح اسمه « وكالة المخابرات المركزية الأمريكية » وذلك في أعقاب وضع الحرب العالمية الثانية أوزارها ، حيث كان اسمها أصلاً : مكتب الخدمات الاستراتيجية .

وقال : إن الضابط الأمريكى حدد مطالبه بالاتصال مع جماعات الفلاحين وإعطائهم أجهزة الراديو واللاسلكى التى من شأنها أن تزودنا بحلقات الاتصالات الضرورية معنا وبخاصة للحصول على المعلومات عن اختبارات الصواريخ الروسية ، حيث أنهم كانوا يرغبون في معرفة قواعد الروس العسكرية ومواقعها وإمكانياتها ومسارات اختبارات الإطلاق والإقلاع والتفصيلات الفنية اللازمة حول هذه الصواريخ .

كما اعترف سكوبى أن المخابرات الأمريكية أرادت معلومات عن الجيش الأحمر الروسى وكل ما يحدث على الصعيد الاقتصادى والسياسى فى المنطقة . واعترف بأن هذا الضابط هو الذى أمدّه بالعتاد والأجهزة وسوى الترتيبات الكاملة مع البحرية السويدية وأجهزة المخابرات المضادة فى جوتلاند . ولم يكن أمام الضابط المحقق إلا الأخذ بأقواله واعتبارها صحيحة طالما أن الأجهزة التى أمامه لم تكن سوى أجهزة أمريكية الصنع .

وفى اليوم التالى من يناير عام ١٩٤٧ ، عرض على المستر سكوبى مجموعة مختارة من الصور الفوتوغرافية . وكان من بينها صور للمستر « روبرت أندرسون » رئيس محطة المخابرات البريطانية فى ستوكهولم ، والكولونيل « ليونارد جونسون » الملحق العسكرى الأمريكى ، ومسئولون آخرون بالسفارة كان الضابط المحقق يتشكك فيهم وفى تورطهم فى أنشطة تجسسية وتخريبية .

ولقد كشفت التحقيقات أن هناك شخصا اسمه « ماكلاشلان سيلفروود كوبى » ملحقاً رسمياً بصفته سكرتير ثالث فى السفارة البريطانية فى ستوكهولم منذ صيف عام ١٩٤٥ ، وكان قد غادر السويد على غير توقع وطار إلى إنجلترا . إن هذا الدبلوماسى العجوز البالغ من العمر ٣١ عاما كان معروفا لكبير ضباط استخبارات أجهزة المخابرات البريطانية السرية فى السفارة ، وهو الذى طور أثناء الحرب صلاته الوثيقة مع المخابرات الفنلندية والنرويجية .

وعلى الرغم من أن إنكار « سكوبى » أنه يعرف « سيلفروود كوبى » ، إلا أن الضابط المحقق توصل إلى نتيجة مؤداها أنه من الواضح أن مهمة سكوبى هى مجرد البدء فى شن خطة بريطانية لتجنيد العملاء فى روسيا وتزويدهم بالضروريات ثم نقلهم بالمظلات ، وإنهم تركوا عمداً علامات « جيش الولايات المتحدة » على أجهزة الراديو ، حتى يمكن لفت الانتباه وإبعاده إلى الأمريكيين فى حالة قبض الأعداء عليهم والاستيلاء على مامعهم من أجهزة ومعدات . أنكر سكوبى أية صلات تربط بينهم وبين أجهزة المخابرات البريطانية قائلا : إن كل هذه المعلومات غير صحيحة .

وفى الأسابيع التالية لسفر المستر « سيلفر وودكوبى » بالطائرة إلى لندن ، أصبح « لوكا سيفتش » قلقاً بشأن عملية الخداع التى قام بها . ولم تكن أجهزة المخابرات السوفيتية الـ « كى - جى - بى » مدركة أو عالمة بأسباب عدم وصول سكوبى كما أنهم

تلقوا رسالة أخرى من السويد بأن الزورق تعرض لعاصفة هوجاء هي التي تسببت في تأخيره ، وإنه سوف يصل في تمام يوم ٥ يناير - بعد يومين من فشل وإخفاق « سكوبى » في تحديد هوية الكولونيل المطلوب لضابط التحقيق .

أما المستر « ماكيبين » فقد كان يتعشم في ترتيب سفينة بديلة إلا أنه أخفق . أما « زاندى » وجماعته الكبرى ، فلا تزال تحت رقابة المخابرات السوفيتية الـ « كى - جى - بى » ، ومع ذلك فقد استطاعوا العودة إلى بيوتهم .

لم يكن « زاندى » و « تومسون » يستطيعان صبراً وانتابهم الجزع وأخذ منهم الهلع كل مأخذ ، وكان « تومسون » قد وجد زورقاً صغيراً بحاجة إلى تصليحات طفيفة وأصبح على استعداد للإبحار . وفي ليلة الإبحار فشلت المحركات في الشروع والتحرك بالدوران . واكتشف فيما بعد أن الميكانيكى التابع لأجهزة الـ « كى - جى - بى » كان قد أزال جزءاً صغيراً ولكنه حيوى من المحرك .

بلغ اليأس بالمستر « تومسون » مبلغه واشتد به القلق ، وسرعان ما أخذ يبحث عن زورق آخر في حين أن « زاندى » استمر بكل قوة ونشاط في جمع الاستخبارات لكى يتم بثها عن طريق المستر « برجمانيس » . إلا أنه بحلول شهر مارس عام ١٩٤٧ ، صار رؤساء « لوكاسيفيتش » قلقين تستبد بهم الظنون والشك بشأن جودة المعلومات الاستخبارية التي كان يرسل بها المستر « زاندى » . وبمرور الوقت صار زورق المستر « تومسون » جاهزاً للإبحار ، ولكن فجأة ، صدرت أوامر من أحد رجال الاستخبارات المعادية . « اقبضوا عليهم فوراً .. لقد أصبحوا في منتهى الخطورة » .

وأرسل « كارليس أرينز » مشغل الراديو في السويد الذى استطاع التقاط آخر رسائل « برجمانيس » في السويد ، بتحذيراته إلى المقر الرئيس للاستخبارات قائلاً : لقد حدثت كارثة عظمى .. ألقى الأعداء القبض على المستر زاندى ، والمستر تومسون . أما أنا فقد نجوت بأعجوبة . وأخشى أن يعترف المستر زاندى تحت وطأة التعذيب . كما توقفت جميع الأنشطة . ساعاود الاتصال بكم حينما يصير الوقت أكثر أمناً وسلامة .

وعلى صعيد العمليات الاستخبارية في المقر الرئيسى لمخابرات الدولة البريطانية السرية ، أدت هذه المعلومات الخطيرة إلى إرباك المستر « كار » والمستر « ماكيبين » إذ كانت مفاجأة لهم وتطوراً غير متوقع بالمرّة . ففي الماضى القريب ، لم تكن هناك أية إشارة أو مجرد تلميح بوجود أدنى خطر ، والآن انقلب كل شىء رأساً على عقب . إذ

أطبق الصمت الرهيب ولم يعد أحد يعرف بما جرى لهم .

وسرعان ما اتخذت أجهزة وأقسام المخابرات البريطانية السرية كافة الإجراءات الكفيلة بامتصاص الصدمة ، حيث شرعوا في تغيير كافة الخطط المستقبلية القائمة على عمليات الفريق المضبوط ، كما حاولوا حماية سائر العملاء عن طريق إبلاغهم بطرق وأساليب تكفل لهم السرية وعدم الوقوع في براثن استخبارات الـ « كى - جى - بى » . إذ أن المخابرات البريطانية كانت قد تعلمت في الماضي أن الـ « كى - جى - بى » إذ أن المخابرات البريطانية كانت قد تعلمت في الماضي أن الـ « كى - جى - بى » يستغل المعلومات المستمرة من سقوط العملاء . والجواسيس البريطانيين في شن عمليات جديدة إجهاضية .

وشرعت المخابرات البريطانية في البحث عن عملاء جدد وكان الذى رشحهم لها هو المستر « روبرت سيريس » الذى هرب من لاتفيا في مايو عام ١٩٤٥ . واكتشف المستر « سيريس » أن شخصاً عظيماً يصلح للعمل الجاسوسى ألا وهو المستر « فيليكس رومينكس » .

ولد « رومينكس » في « ريجا » عام ١٩١٤ ، وعمل في الفيلق العسكرى المعروف باسم « إس - إس » التابع لدولة لاتفيا وذلك قبل أن يهجره في يناير عام ١٩٤٥ . وسرعان ما تم اعتقاله فيما بعد ، وتقابل مع أحد معارفه واسمه « روبرت أوسيس » ، أحد ضباط جيش لاتفيا الذى كان مصدراً من مصادر الاستخبارات في منطقة « ريجا » قبل عام ١٩٣٩ .

وفي اثناء الاحتلال الألمانى ، تمت ترقية « أوسيس » إلى رتبة الكولونيل « عقيد » وعهد إليه أساساً بتولى مهمة حراسة حارة اليهود في « ريجا » غير أنه فيما بعد تولى قيادة فريق إعدام متجول في كل من « لاتفيا » و « بولندا » . وقد تم مناقشة أنشطة زمن الحرب هذه بإيجاز فقط حينما تقابل « أوسيس » و « رومينكس » في يناير عام ١٩٤٥ .

واقترح « أوسيس » وجوب إبحار « رومينكس » إلى السويد وإبلاغ أجهزة الاستخبارات البريطانية أن « أوسيس » ، وهو المصدر الموثوق لديهم في ريجا منذ عهد ما قبل الحرب ، أصبح للمرة الثانية على استعداد لأن يقدم خدماته . ووصل

« رومينكس » بمساعدة الألمان إلى السويد ، وفي أعقاب مكالمته وحديثه مع أحد مسئولى السفارة البريطانية ، قام بالاتصال بالمستر « تيفيرز » التابع للمجلس المركزى اللاتيفى ، وكان قد عمل فترة وجيزة لدى الإنجليز .

لم يثمر اجتماعهما عن نتائج تذكر وتم إدخال المستر « رومينكس » فى أحد معسكرات اللاجئيين ، فى حين أن « أوسيس » بمساعدة جهاز المخابرات البريطانية ، كان قد وصل أخيراً إلى بريطانيا سالماً .

ولما عثر « سيرس » على « رومينكس » فى أوائل عام ١٩٤٦ ، علم أنه يعتزم العودة إلى بلاده ، سألته أن يترث . وتم الاتفاق على أن يسافر « أرسيس » إلى السويد انطلاقاً من لندن ، ونياية عن « ماكيبين » لمقابلة المستر « رومينكس » وإقناعه بالعودة إلى « لاتفيا » باعتباره عميلاً سرياً من عملاء المخابرات السرية البريطانية .

ووافق « رومينكس » على هذه الخطة ، ولما حققت معه المخابرات السوفيتية الـ « كى - جى - بى » ، اعترف على الفور بأن المخابرات البريطانية كانت قد جنده ، وأعطته اسماً رمزياً وحركياً وهو « ميلبارديس » وأن قناة اتصالاته مع لندن هو زيارته للبحارة من التجار الذين يعملون بالتجارة فى البحر .

ولما اعترف بتفاصيل كل شىء ، صار بوسعه إقامة علاقة طيبة مع الضباط المحليين الذين يعملون فى استخبارات لجنة أمن الدولة السوفيتية الـ « كى - جى - بى » وأن يفى بالغرض الحقيقى لمهمته ، ألا وهو استكشاف المصير الذى آل إليه المستر « زاندى » و « تومسون » و « أرنيش » . واعتزم أن يرسل بالمعلومات التى استقاها عن طريق البريد ، مستخدماً الحبر السرى ، وموجهاً رسائله إلى عناوين فى ألمانيا الغربية وبلجيكا .

وحدث أن جاءت عودة « رومينكس » حسبما كان مخططاً لها من قبل ، كما أن اقتناع ضباط الـ « كى - جى - بى » برواياته المختلفة ، وسمحوا له باستئناف حياته الطبيعية فى مدينة « ريجا » . أما أجهزة الاستخبارات البريطانية ، والمستر « ماكيبين » فقد كان يتعين عليهم الانتظار وترقب التطورات المستقبلية .

\*\*\*\*